البعد الثقافي لإشكالية التنمية

الدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي

نشر في كتاب

إشكالية التنمية ووسائل النهوض.. رؤية في الإصلاح

نخبة من الكتاب والباحثين

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

إشراف مركز البحوث والدراسات سابقا

(إدارة البحوث والدراسات حاليا)

الطبعة الأولى

رجب 1429هـ - تموز (يوليو) 2008م

أعيد نشره إلكترونيا في رمضان 1439هـ/ 2018م

البعد الثقافي لإشكالية التنمية

الدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي (*)

من يتصور أنه قادر بأمر من (فوق) أو بخطبة أو كتاب، أن يحدث التغيير فعليه أن يتذكر جيداً (معاناة) رسل الله، عليهم السلام، وهم أفضل البشر المؤيدون من السماء، ومع ذلك كافحوا وجادلوا وقاتلوا حتى قتل بعضهم، مع عظيم المشاريع التي حملوها للعالم.

كل مجتمع وكل دولة تتطلع إلى التنمية، والناس عادة لا يختلفون كثيراً حول (الأهداف) الكبيرة، لكنهم يختلفون حول (الوسائل) هل توصل إلى الأهداف أم لا؟ ومقولة: إن (الشيطان) يتدخل في التفاصيل صحيحة، فكلما كثرت التفاصيل وتعددت كثر الخلاف حولها وتعدد.

وبالمثل فإذا كانت (الوسائل) مبهمة أو غامضة فالخلافات تنشب في المستقبل القريب أو البعيد.

في عالمنا الإسلامي جاء الإسلام فوحّد عرب الجزيرة، الذين لم يجمعهم دين، ولا

(*) باحث أكاديمي.. (المملكة العربية السعودية).

تسيطر عليهم دولة فوحدهم، وأقام لهم دولة قوية فتية، ودفعهم لإقامة حضارة، كان مواطنوها الأول في العالم، ثقافة وتحضراً وانضباطاً، وكانت مدارسهم ومدنهم الأولى في العالم.

وبعد قرون (بدأ العد التنازلي) فتحولت الأمة إلى جماعات متناحرة متقاتلة، والدولة الواحدة إلى إمارات متصارعة، وتوقفت التنمية، وتحجرت الحركة العلمية، سقطت الأندلس على أيدي برابرة الأسبان، وسقطت بغداد على أيدي التتار، ورُميت الكتب والمراجع في نهر دجلة حتى تغير لون الماء.

وجاءت موجات من البرابرة يجتاحون بلادنا باسم (الصليب)، وضعوا السيف في رقاب الناس، ونشروا الخوف والخراب والذعر، فتوقفت التنمية وأقفرت البلاد، وقمنا بعد قرن من طردهم والتخلص من شرورهم، لكن أحفادهم من (عتاة المستعمرين) فاجأونا وكل العالم بالاجتياح، فقتلوا وسلبوا، واستعمروا كافة القارات، وبعد جهاد وجلاد ودماء ودمار، خرجوا من الباب ليعودوا من الشباك.. حاولوا ومازالوا أن يفرضوا علينا رؤاهم وقيمهم وثقافتهم وأنماط الإدارة والتنمية، وتحركنا بين راغب ومكره في متابعتهم وتقليدهم، وحسبنا أن ذلك سيجعلنا نتقدم ونتخلص من التخلف، ولكن العجب أن الغرب الذي كان يسجل النجاح تلو النجاح، ويكون نصيبنا الفشل فوق الفشل، وهناك أسباب داخلية وأخرى خارجية، وهناك قضية لا بد من معرفتها، فليس كل مشروع ناجح في قُطْر يمكن نقله حرفياً إلى قُطْر آخر، فالبشر يختلفون، وما يصلح لقوم قد لا يصلح لغيرهم، والتنمية بل النهضة لا تكون بقرار سياسي من أعلى، ولا تحصل إلا بإيمان وعمل، من الحاكم والمحكوم، وقديماً قال الشاعر:

أتمنى أن أراه حلماً　　　　والتمني رأس مال المفلس

ويقول آخر:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا　　　　وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

وإذا كان – من نكد الدنيا – أن ناساً يعشقون (الكفر)، فلا أحسب عاقلاً يعشق (الإفلاس)، وإن وجد فلا بد من خلل في رأسه.

التنمية مطلوبة على كل المستويات، فإذا أريد لها النجاح فلا بد أن تكون متوائمة ومتلائمة مع ثقافة وقيم الأمة، ولا تكون غريبة ولا مفروضة فرضاً، فالإنسان الذي كرمه خالقه وجعل له عقلاً وإرادة، فمن الصعوبة بمكان أن (يُحمل قسراً)، من هنا نفهم جيداً قول الحق ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ (البقرة:256).

والطغاة الذين آمنوا بجدوى الإكراه سقطوا الواحد تلو الآخر، وفشلوا في تحقيق مشروعهم، ولعل آخر الإمبراطوريات سقوطاً (الاتحاد السوفيتي) الذي سقط دون أن تطلق عليه (رصاصة).

بإمكان الطفل أن يقود قطيعاً من الجمال أو البقر، لكن قيادة البشر صعبة، وحملهم على التغيير صعب، ومن يتصور أنه قادر بأمر من (فوق) أو بخطبة أو كتاب، فعليه أن يتذكر جيداً (معاناة) رسل الله، عليهم السلام، وهم أفضل البشر المؤيدون من السماء، ومع ذلك كافحوا وجادلوا وقاتلوا حتى قتل بعضهم، مع عظيم المشاريع التي حملوها للعالم، إن نقل (الجبال) أسهل من إقناع البشر وحملهم على فعل أمر لا يعتقدون (سلامته).

– مشروع كبير لزراعة «عباد الشمس»:

أحد الوزراء العرب ذهب في زيارة لدول أوروبا الشرقية، زار مزارع واسعة «لعباد الشمس» وأُعجب غاية الإعجاب، فقرر نقل التجربة للعراق، أمر بشراء عشرين طناً من البذور وزرعها في العراق، وفوجئ بالأمراض تضرب النبات والمحصول السيئ جداً، فثار – وهو وزير في حكم ثوري– وجمع موظفيه يخطب فيهم فكان (خَطْباً لا خطيباً) ومما قال: إنكم تعادون المشروع، وتريدون إفشاله، وأنتم أعداء الثورة وسوف أسوقكم بهذه التهمة، وفاجأت خطبته (الهتلرية) الموظفين المساكين، وعقدت ألسنتهم، لكن واحداً

وقف ليقول: إن زراعة «عباد الشمس» في شرق أوروبا حيث تهب درجات الحرارة تحت الصفر شتاء، وتهطل الأمطار بغزارة صيفاً، والأملاح شبه معدومة في الأرض، لهذا تنجح زراعة «عباد الشمس» هناك، ولا تنجح عندنا، وضرب مثلاً بـ(النخل) فهو يزهر في درجة حرارة ما بين (20-25) درجة، لكنه ينضج في درجة حرارة (45) فأكثر، فلو نقلنا النخل إلى أوروبا أو سيبيريا فلن ينضج.. «عباد الشمس» يشكل أنموذجاً للنقل غير الموفق، وكم من (عباد) نقلناه وفشلنا وفشل، لأن النقل يتطلب شروطاً لم تتوفر، و(التنمية) خير تجربة، فكل العالم ينقل تجربة (الغرب) في التنمية، والسؤال : هل نجح (الكُل) في العملية؟

لقد قمنا بنقل الكثير من لدى الغرب، فمنذ أواخر العهد (العثماني) قمنا بتقليد الغرب، ابتداءً من الدولة القومية وفق النمط الغربي سياسياً وإدارياً، أقمنا المدارس والجامعات وفق المنهج الغربي، أقمنا المصارف والبنوك والنشاط الاقتصادي وفق النموذج الغربي، ومع كل ذلك حق علينا قول الشاعر: بكل تداوينا فلم يشف ما بنا

فلماذا هذا الفشل الكبير؟

أسارع: هذا (الطرح) ليس رفعاً للرايات (السود) ولا إدارة (الظهر) لما جاء من الغرب، ولكنه الواقع المحزن والذي سجلته أقلام – غير متهمة- جلها تتلمذ على الغرب، وبعضها يمارس التعليم هناك، والكثير منها ليس أصولياً ولا متطرفاً، وسأعتمد على مثل هذه الشهادات، التي يصعب الطعن فيها وفي أصحابها.

– د. برهان غليون: يتساءل:

د. برهان غليون، سوري الأصل، فرنسي الجنسية، أستاذ في جامعة السوربون، يتساءل: نحن قلدنا الغرب، من الدولة القومية إلى الأيديولوجيات والأفكار، ومع ذلك فالنتائج بعيدة كل البعد عن نتيجة الغرب؟

يقول د.غليون: الدولة القومية الحديثة، التي تطبق نفس الصيغ الإدارية والقانونية،

وتستلهم نفس القيم القومية والعقلانية والبيروقراطية، السارية في الغرب، ومع ذلك لم تنتج (لحمة) وطنية، ولا (إرادة) قومية، ولا حريات مدنية أو سياسية، كان من المنتظر أن تنتجها، لكنها سرعان ما تحولت إلى (سلطة قهرية) بل قوة (غاشمة عدوانية)، كذلك فإن (القيم) والعقائد الحديثة مثل: اللبرالية والماركسية والوجودية والمثالية وغيرها، التي حلت محل القيم التقليدية، أو دفعتها إلى الخلف، هذه لم تنجب مواقف أو سلوكاً أو تواصلاً، فردياً أو اجتماعياً، ثقافياً أو سياسياً، يختلف عما كانت تؤسس له القيم (التقليدية)، في أكثر صورها تأخراً، كالقبلية والعشائرية والطائفية...[1].

أسئلة منطقية تتطلب الإجابة، نجاح للأصل وفشل للمقلد، فلماذا؟ هل الإشكالية في عملية (النقل) لأنها تقطع (المنقول) عن أصله وبيئته، والبشر الذين وضع لهم، أم الإشكالية والعيب في القيم لدى المنقول إليهم، وفي سوء التطبيق؟

- أسئلة جديدة:

د. غليون في جل كتبه وأولها (اغتيال العقل ونقد السياسة: الدولة والدين) يطرح أسئلة كثيرة ويجيب عنها، والأسئلة الجيدة في ذاتها نوع من الطرح.

يتساءل غليون: هل استطاعت النظم الاجتماعية أن تستوعب نظام الدولة (الحديثة القومية)، بحيث تستخدمه لتعميق لحمتها الوطنية وزيادة قوتها السياسية، وتحرير مبادرات أعضائها وحركتهم الحرة، وإطلاق طاقاتهم المادية والفكرية، أم إنها تسلطت على الجماعة فأعادت (تمزيقها) بما يخدم زيادة دورها ومكانتها، وقد وحدت نفسها مع فئات أو طبقات أو عشائر أو طوائف محلية، حتى صارت عبئاً على الجماعة، وسبباً لازدياد (استلابها) وتبعيتها وعبوديتها... [2] أهـ

كان البشر قديماً تبهرهم المعجزات، ويفعل فيهم السحر الأفاعيل، ويلاحظ أن

(1) اغتيال العقل، ط6، ص 202.
(2) اغتيال العقل، ص 53.

الأديان (قديماً) أكثرت من ذكر (المعجزات)، وفي الحوار بين موسى، عليه السلام، وفرعون كانت الكلمة للسحر والسحرة، حتى قال تعالى: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف:116)، إلا أن تقدم البشر جعلهم يبتعدون عن ذلك، وكأنهم اتخذوا من (العلم) وما ينتجه (سحراً جديداً)، وقد ساد اعتقاد في القرن (19) وما بعده، أن لا سر في الكون، لأن العلم حل كافة (الطلاسم)، ولذا فكل قضية لا يحلها العلم فهي قضية (زائفة).. العرب في العصر الحديث (بهرتهم) المنجزات العلمية، ولما لم يحصلوا على (العلم) المطلوب راحوا يبحثون عن سبب (الفشل) فوجدوه في (التراث) فإذا جرى التخلص منه (تقدموا) (!)

د. برهان غليون يحلل هذه (الإشكالية) فيقول: إن الجماعات -بحسب عطالتها وجمودها- يكون ولعها بالخوارق والمعجزات، وقد نظر الوعي العربي إلى العلم والتقنية فوجد فيها السحر الشافي لكل الأدواء، وزاد من قوة هذا (التصور) تواتر الاختراعات العلمية والإلكترونية والفضائية، التي توحي بإمكانية الحصول على (كل شيء)، دون جهد سوى (الضغط) على الأزرار، وعندما لم يتحقق شيء وبقي العالم العربي (كما هو)، رغم زيادة المدارس والعلماء، لم يجد الوعي (الحديث) تفسيراً لهذا القصور إلا في (التراث) فصار الاعتقاد بأنه هو القيد الذي يحرم الوعي من الانطلاق نحو العصرية، وغلق أبواب الجنة، فصارت النهضة، (ثورة) على التراث، وأصبح (إقصاء التراث) من التاريخ وإبعاده، أساس التقدم وشرطه معاً، وهذا الإقصاء هو الذي أخذ اسم (الحداثة) وهي التي حلت محل النهضة، فقد كانت النهضة تعني استيعاب الحضارة، ضمن التراث، أما (الحداثة) فتفترض أن هذه الذات تخفي خطر الخصوصية (المبعدة) عن الحضارة، والمبررة للحفاظ على التقاليد.

إن (الحداثة) ليست مشروعاً للحفاظ على التقاليد، ولا مشروعاً للنهضة، وإنما هي (سياسة وممارسة يومية) هي تغيير في كل الاتجاهات للواقع والفكر العربي، إنها

انـدراج دون أوهـام في (العالميـة)، والحضـارة المادية وأولويتهـا، وهـي إنهـاء للخصوصـية والتراث..[1] أهـ

فشـل يعقبـه فشـل، والنجـاح يأتي بنجـاح، والإنسـان يتهـرب مـن الفشـل ويحـاول دومـاً البحث عمـن يحمله، مـن ينجح ويتقـدم يقـول: خططت وسـهرت حتى نجحت، فـإن فشـل بسبب كسله وقلة معرفته قال: ذلك قدري...

إن اختراع الأعداء لا يصعب على أحد، وكباش التضحيات جاهزة ومن أعـوزه شـيء وكان (حاكماً فاشلاً) رمى الفشل على من حوله، وهكذا تضيع المسؤولية ويتكرر الخطأ، ولا من مستفيد، نخرج من حفرة لنسقط في بئر، وتتوالى الهزائم حتى شبعنا، فإلى متى يستمر هـذا الوضع؟

- أسباب أخرى:

تعددت الأسباب والموت واحد، مازلنا نبحث في أسباب الفشل خصوصاً إذا علمنا أن (الحـداثة) مـثلاً تبناهـا حكـام أقـوياء، وكـان المـدد كبـيراً مـن وراء البحـار، ومـع ذلـك فالفشل كبير، فلماذا؟ د.غليون يقول: ما سبب فشل (الحداثة) بعد أن تولتها دول وحكام أقوياء، ماذا حصل بين الأمس واليوم، حتى انقلب مجرى التاريخ، فغيرت العقول (إلهامها) وبـدأ العـرب رحلـة (النكـوص) -كمـا يسـميها الحـداثيون- أو رحلـة اكتشـاف الـذات والصحوة الإسلامية - عند غيرهم- لماذا أخفق النظام الاجتماعي؟ ولماذا فشل المجتمع في استيعاب هـذه (الحداثة) ومـا أدخلته مـن نظم وأفكـار، وفي السيطرة عليهـا والتحكم بهـا؟ لماذا فقد المجتمع توازنه النفسي والعقلي والمادي نتيجة لذلك؟ وأخيراً: كيـف حصـل كـل ذلـك؟ والأهـم: مـا دور المثقـف في هـذه العمليـة؟ ومـا دور الأيديولوجيـة الـتي غطـت هـذا الإخفـاق واستمراره في استيعاب (الحداثـة)، ومـن ثم عملت على إعـادة إنتـاج (الإخفـاق واستمراره)، وكيف منعت الوعي من الكشف عنه، وتفكيك آلياته؟

---

(1) اغتيال العقل، ص 53.

باختصار: ما قيمة (وعي الحداثة وجدارته)، عندما نتحدث عن الإخفاق في استيعاب (الحداثة) ليس لعدم الأخذ بها، بالعكس فإن النظم الحديثة، العلمية والمادية، التي أخذها العرب واستنبتوها في تربتهم، لم تنجب ذات القيم، ولا أدت ذات الوظائف، التي اختيرت من أجلها، والتي كانت منتظرة منها... وإذن فالمشكلة ليست في الدفاع عن (التقاليد) ولكن لماذا كانت (الحداثة) العربية، والتي هي نسخة من عموم (الحداثة)، بل فرع لها، قد جاءت (عقيماً)، ولماذا لا تحرز جيوشنا الحديثة – مثلاً– والمسلحة بنفس المعدات انتصارات، ولا تحصل على نتائج مماثلة لما يحصل عليه جيش غربي؟ [1] أهـ

والسؤال أين الخلل، أهو في عملية النقل، أم في البيئة أم في القيم؟

– شمول الخلل:

د. غليون يرى أن الفشل والخلل شـــامل، فجامعاتنا التي تلتزم المنهج الغربي لا تنتج ما تنتجه جامعات الغرب، الباحث عندنا وفي جامعاتنا متى تحول إلى الغرب أبدع وأجاد، وهذا بحاجة إلى تفسير معقول مقبول.

يقول د. غليون: الدولة القومية عندنا تطبق نفس الصيغ الإدارية والقانونية، وتستلهم نفس القيم القومية والعقلانية والبيروقراطية، السارية في الغرب، ومع ذلك لم تنتج (لحمة) وطنية، ولا إرادة قومية، ولا حريات مدنية أو سياسية، كان من المنتظر أن تنتجها، لكنها سرعان ما تحولت إلى (سلطة قهرية)، بل قوة غاشمة (عدوانية)، كذلك فإن (القيم) والعقائد الحديثة مثل الليبرالية والوجودية والمثالية وغيرها، والتي حلت محل القيم التقليدية، أو دفعتها إلى (الخلف)، هذه لم تنجب مواقف أو سلوكاً أو تواصلاً فردياً واجتماعياً، ثقافياً أو سياسياً، يختلف عما كانت تؤسس له القيم (التقليدية)، في أكثر صورها تأخراً، كالقبلية والعشائرية والطائفية.. [2].

---

(1) اغتيال العقل، ص 33 .

(2) اغتيال العقل، ص 213.

- من بركات النفاق:

أَقرأُ منذ مدة لكتاب غربيين (غزلاً) في النفاق، ومطالبة في ممارسته والتكسب لبركاته، الكاتب الأمريكي «نيل فيرجيسون» في كتابه (الصنم) يدعو الغرب، وكل مُحتل أن يمارس (النفاق) وعلى نطاق واسع، يطلق الوعود ويكرر بأن (السيد المحتل) لا يريد البقاء يوماً واحداً –كمحتل– ولكن ذلك ليس للتطبيق... [1] أ هـ

«بن غوريون» ينصح شعبه الإسرائيلي بالحديث عن السلام، مع البعد عنه... الإنكليز احتلوا مصر وأطلقوا الوعود بالخروج في أقرب وقت ولكن لم يخرجوا إلا بعد أن قطعوا (66) وعداً وعهداً، وبقوا (76) عاماً.. د. برهان غليون يسجل درجة عالية (للنفاق) فيقول: إن بين الرافعين لشعارات (القومية) عتاة الانفصال والقُطْرية، وبين المتحدثين بالعلمانية حماة العشائرية والطائفية.... [2] أهـ

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ (الصف:2-3).

وأختم بما نقله الحسن بن علي، رضي الله عنه، وعن أبيه، عند جده عليه الصلاة والسلام: « **إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**»[3].

فهل صار من شروط أو متطلبات التقدم (مرونة الضمير) وممارسة النفاق دون خجل، وعلى أعلى المستويات؟

---

(1) نيل فيرجسون، الصنم، ط1 (الرياض: مكتبة العبيكان، 1427هـ) ص 326.

(2) اغتيال العقل، ص 89.

(3) انظر البخاري الفتح، 61202/10، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ، رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**».

- أزمتنا المعرفية وأسبابها:

أكثر من باحث عربي يرى أن بلادنا تعاني من (أزمة معرفية) تشمل المعرفة العلمية، وطرق تحقيقها، كما تشمل السياسة التعليمية والمناهج والأهداف، فإذا جرى طرح المسألة وجدنا الاختلاف في الأسباب فهناك من يتهم (العقل العربي) ومن يتهم (التراث).. د. غليون: يرى أن (الحداثيين) يفسرون عدم النجاح – في ميدان العلوم والمعارف- في الحاضر والماضي، وللثقافة بعمومها، كل ذلك يعود لخصائص في (العقل العربي) أو الشرقي أو البدوي، ليصلوا إلى أن (شرط اكتساب العلم) لن يكون حتى (نتخلى) عن تاريخنا وثقافتنا، إذ هي (أصل الفساد) ومنبع الخطأ، لذا فالواجب (النهل) من العلم الغربي، لكن (الجماعة) لا يدركون أن هذا النهل) مخالف للعلم، وللمنهج العلمي الصحيح..[1]أهـ

ويناقش د. غليون كل ذلك مناقشة علمية مستفيضة فيذكر جملة أمور[2]:

1- عدم وجود مساهمات علمية في الإنتاج العلمي الحديث في جامعاتنا، والاستثناء من ذلك العرب الباحثون في الغرب، سواء في الجامعات أو مراكز البحوث.

2- إن اتهام العقول العربية بتهم مثل اللاعقلانية أو السحرية أو البيانية، كل ذلك لا يفيد ولا يفسر.

3- اتهام العقلية العربية بالتعلق بالتراث، فإن ثقافة اليوم العلمية لا تستمد مفاهيمها ولا طرقها ولا غاياتها من التعليم القرآني أو الفقهي مثلاً. بل الأغلبية (الدراسة للعلوم) قد تعلموا في مدارس حديثة، وفي كليات ومعاهد لا تختلف عن مثيلاتها في الغرب.

4- بل هناك نخب كبيرة تخرجت في جامعات الغرب الكبرى، ولا صلة لهم (بالتراث)، ولا بالثقافة العربية (الكلاسيكية)، أما معرفتهم للعلوم الدينية والفقهية

---

(1) اغتيال العقل، ص 224.

(2) المرجع السابق، ص 226.

- باستثناء قلة من المختصين- فهي معدومة، وإن وجد شيء فهو انتماء (رمزي) في أحسن الأحوال.

5- كيف إذن يتصور أن هؤلاء يستقون عقليتهم اللاهوتية والسحرية من المعارف الإسلامية التقليدية؟

6- يطرح د. غليون تساؤلاً ثم يجيب عنه فيقول: ما أسباب انعدام (الروح العلمية الإبداعية) ؟ فيردها إلى (القطيعة) مع التراث، وكذلك كون الثقافة المحلية، فهي مصدر غياب الحافز (للبحث والتجديد).

7- كذلك يمكن التسليم بأخذ العلوم كما هي، ولن يفيد هنا القول بأن الثقافة (المحلية) قد ضحت بالتيار (العقلاني) لصالح التيار الفقهي، إلا إذا آمنا بفكرة (الخطيئة الأصلية)، والتهرب من مواجهة الواقع الراهن.. أ هـ

إن اختراع (الأعداء) ليس صعباً، ورمي الفشل عليهم سهل ميسور، لا يعجز عنه حاكم ولا محكوم، فهل يعجز عنه (الأخ الحداثي)؟

لقد ظل العقل العربي قروناً متقدماً على سواه في العالم، وحين كانت مدارسنا في الأندلس، والقاهرة، ودمشق، وبغداد يأمها كل طلبة العالم، ولا يعتبر الإنسان عالماً حتى يتعلم اللغة العربية، ويقول: «ديورنت» في «قصة الحضارة»: إن مكتبة الصاحب بن عباد الشخصية كانت تحوي من الكتب أكثر من كل ما كان في المكتبات العامة في أوروبا كلها.. ومراجعنا وكتبنا تدرس في العالم إلى عهد قريب، في الطب والهندسة والجبر والرياضيات والفلك، فكيف يمكن تفسير ذلك؟

- الحداثة.. الأهداف والوسائل:

البعض عندنا يعشق المبالغة حتى يجعل من (الحبة قبة) ويتحدث كتَّاب ومؤلفون عن الليبرالية فإذا هي (جنة عدن) ويتحدث آخرون عن الديمقراطية فلا يبقى من الخير شيء إلاّ حوته ودعت إليه، ومثل ذلك الحداثة، والعاشق يرى الجمال والجلال والروعة كلها اجتمعت

في معشوقته، وإذا لم يسلم له العالم بذلك فالعيب فيهم وفي رؤيتهم، وعليهم أن يتهموا أنفسهم ليس إلا.

د. برهان غليون يحاول تحديد أهداف الحداثة بدقة مع الوسائل، وما يمكن أن توصلنا إليه[1]:

1- تكوين منظومة (العقل النظري)، ومهمتها بيان أسس (المعرفة) الحقيقية، إذ تؤسس (للعلم).

2- تكوين منظومة العقل (العملي): ومهمتها تحديد (معيار) السلوك الصحيح (الواجب)، وهذه المنظومة تجمع ما يتعلق بالأخلاق.

3- تكوين منظومة العقل (الرمزي) وهذه تعين معيار (الجمال)..أهـ

أهداف تبدو جميلة، ثم يحاول د. غليون سبر أغوارها وبيان النتائج الفعلية.

فالحداثة (تفضي) كمنطلق لتكوين (العقل العربي الحديث)، تحديداً إلى (عكس) ما تريد الوصول إليه، فهي تسعى إلى (تدمير) أسس الواقع المنظور والتجربة العلمية، باسم أيديولوجية (علموية) مع إلغاء نظام أخلاقي باسم (تحررية) متمحورة حول إرضاء (الرغبات الفردية)، لتنفي كل مكانة لمفهوم (الواجب والحق)، أو تدفن إبداعية المخيلة في ممارسة (استنساخية) فاقدة لكل عوامل الانسجام.

وهكذا بعد أن تفضي إلى تدمير أسس العقل العربي، فإنها تضع نفسها والمجتمع في ظروف تجعله غير قادر فيها على فهم (المشكلات) الكبرى المطروحة عليه، وإيجاد الحلول لها.

هذه الأهداف وهذا النقد أرجو وأتمنى أن ينبري من يناقشها علمياً، ويكف عن التغزل البارد، الذي يجعل الحداثة (جراباً) يحوي كل شيء.

- بين الحق والباطل:

البشر يختلفون فإذا وقعوا في الاختلاف فما هو المرجع في ذلك؟

---

(1) اغتيال العقل، ص 220.

يبدو أن الحداثة تريد أن تصبح ديناً جديداً، ومثلها الشيوعية، حاربت كل الأديان، ثم صارت ديناً جديداً متشنجاً أكثر من الأديان كلها، ومن هنا جاء مقتلها.

الحداثة وسيلة عمل وليس عقيدة، فإذا صارت عقيدة فمصيرها لن يكون أفضل من الشيوعية.

- ما تقدمه الحداثة عندنا:

د. برهان دائم الحديث عن (الحداثة)، وهو يحاكمها محاكمة (صعبة) ومرة أخرى أتمنى أن ينبري أحد عشاقها فيفند ما يقال في المعشوقة (حداثة)... د. برهان يقول: إن حداثتنا (تسد) علينا الأبواب في السياسة والاقتصاد والثقافة والعلم والمعرفة والاجتماع والأخلاق، ماذا بقي؟ إنها تنتج (قهراً وعنفاً واستبداداً) أكثر بكثير مما تنتج من حريات (فكرية عملية) وهي تراكم (الفقر والبطالة والبؤس) أكثر مما تزيد من قدرة الأفراد على الاختيار في تحسين شروط حياتهم المادية والمعنوية، وهي تشجع عمليات (غسيل الدماغ، وصب فكر الأفراد في قوالب جاهزة وجامدة، أكثر مما تنمي العقل المفكر والمتأمل والمتسائل، وهي تعمم الأيديولوجيات والشعارات والأساطير الدعائية أكثر مما تعمل على تكوين الأفراد وتأهيلهم، وصقل عقولهم، وتزويدهم بالمعارف الحقة، وهي تنتج (الأمعية) والتبعية والالتحاق والولاءات الزبونية والعصبوية أكثر مما تقود إلى انبثاق الذات الحرة والمسؤولة والفاعلة والمشاركة في تقرير مصيرها، وهي تبني السلوك على معايير القوة والغطرسة والانفراد والازدواجية وانعدام المسؤولية أكثر مما تصنع قواعد أخلاقية تنظم العلاقات بين الأفراد، على أسس طواعية مدنية...[1]أهـ

أشعر أن د. غليون خاب ظنه في الحداثة، وأصيب بإحباط كبير، من حداثتنا (الرئة المدجنة)، التي فشلت أن تقدم شيئاً نافعاً مفيداً.. ومرةً أُخرى هل من متطوع لمناقشة كل ما

(1) صحيفة الحياة في 2006/2/13م.

كتبه د. غليون وأمثاله، وبالمناسبة أتمنى أن يقوم طالب (دكتواره) فيناقش كل ما قيل في العلمانية والليبرالية والحداثة وما بعد الحداثة.

- العلمانية عدمية واستعمار ثقافي:

د. هشام شرابي فلسطيني الأصل أمريكي الجنسية (أستاذ بيل كلنتون) يتحدث عن العلمانية وهي شقيقة الحداثة، علماً بأنه من (رموزها)، يتحدث حديثاً غريباً فيصفها بكونها (عقيدة الأغنياء)، وأن السائد منها في أوساط المثقفين العرب كونها من أشكال العدمية البرجوازية والاستعمار الثقافي الغربي، وأن المبشر بذلك عندنا، بنظرية (الانقطاع) ما بين ثقافتنا العربية المعاصرة، وبين تراثنا الفكري، هؤلاء لا يقصدون توجيه الجيل العربي نحو التقنية العلمية الغربية، بل نحو الأيديولوجية البرجوازية الغربية، وتحديداً نحو الأنواع (العدمية) من ثقافة الغرب خاصة، أما الغرض الأساسي الذي يرمون إليه، فهو إبعاد هذا الجيل من (مشكلات بلاده)، والتي تحددها ظروف المعركة التحررية التقدمية القائمة الآن في بلاد العرب بأقصى حدتها.. [1] أهـ

- قيمة المعرفة المنقولة:

الجديد لدى د. شرابي إيمانه بأن (المعرفة المنقولة) والمستوردة لا تنشئ وعياً ولا تحرر فكراً، ولا تطلق قوى الإبداع في الفرد ولا في المجتمع، بل تعمل في أعمق المستويات على تعزيز العلاقات (التبعية) الثقافية والفكرية والاجتماعية... [2]أهـ

هذا حديث رجل علماني غير متهم، وقديماً قيل: (إذا قالت حذامي فصدقوها) فهل العيب في النقل أم في الشخص الناقل؟

لقد نقلنا عن الحضارة اليونانية الكثير من العلوم، وتركنا كلياً الآداب؛ لأنها كانت (وثنية) تؤمن بتعدد الآلهة، التي تجاوز عددها (30) ألف، والحروب بينها مشتعلة، قمنا

---

(1) دراسات في الإسلام، نقلاً عن النقد الحضاري، ط1، ص 60.

(2) المرجع نفسه، ص 51.

بدراسة تلك العلوم ونقدها ولم يفعل النقل ما يراه د. شرابي... كنا أقوياء واليوم نحن ضعفاء ونفتقد الثقة بما عندنا، من هنا اختلف الموقف، فالعيب ليس في ذات النقل، بل في الظروف المحيطة به، ومعلوم أن الحضارات نقلت وترجمت واقتبست.

- د. شرابي: العلمانيون باحثون أجانب:

يواصل د. شرابي هجومه القوي على إخوانه من العلمانيين فيقول: ينسى المثقفون العلمانيون (تجربتهم الذاتية) في كتاباتهم، فتظهر كأنها أبحاث يقوم بها (باحثون أجانب)، تتصف كتاباتهم بالتجريد الأكاديمي، وينطوي على ذلك نتائج في غاية الأهمية، إذ أن مقاربة (الذات) من موقع (الآخر) وبأسلوب وموقع الباحث الأجنبي يؤدي بالضرورة إلى (تبعية فكرية) يصعب التغلب عليها... [1] أهـ

هذه ليست تهماً أروجها، ولكن آراء باحث (من أهلها) فهل ترد شهادته؟

- البحث العلمي الاجتماعي غير محايد:

يهاجم د. شرابي ما يعرف بالبحث العلمي في العلوم الاجتماعية والإنسانية، فهي لا تقوم على الموضوعية ولا الحياد، بل ترتبط دائماً بمواقف نظرية وطرق منهجية، وتؤثر تأثيراً كبيراً في النتائج التي يتوصل إليها الباحث في بحوثه العلمية الموضوعية... كما أن النظرية العلمية ومنهجيتها إنما ينبثقان من أرضية غير علمية ولا موضوعية أساساً، بل يعبران عن اتجاهات ومعتقدات ومصالح خفية ولا شعورية... [2] أهـ

إدعاء الموضوعية في البحث ليس صعباً، والتهرب منه كذلك ليس صعباً، والعبرة بما ينتجه الباحث، وما يتهرب منه، كما يكشف عن مخزونه الفكري، وخلفيته التاريخية.

---

(1) المرجع السابق، ص 92.

(2) المرجع السابق، ص 35.

- أنظمتنا ومعارفنا كلها غربية:

يذهب د. شرابي في هجومه إلى أبعد مدى حين يقرر (أن أنظمة المعرفة وأساليب البحث العلمي) في بحوثنا الإنسانية والاجتماعية هي عبارة عن أنظمة وأساليب (غربية) في كل صورها وأشكالها، حتى معرفتنا (لذاتنا وتاريخنا ومجتمعاتنا)، كلها (معرفة غربية) في صحيحها.. وهذا ليس خاص بنا، بل هو عام في العالم الثالث، فهي تنتج وتعيد (المعارف الغربية) ولكن محلياً، وهنا يمكن أن نتفهم (أسباب الرفض) المطلق للغرب عند (الأصولية) وإصرارهم على (العودة) إلى الدين والتراث بهدف استعادة الهوية الأصلية، من خلال (معرفة تراثية مستقلة) عن كل الأطر والمفاهيم الأجنبية.. [1] أهـ

أعتقد جازماً لو صدر مثل هذا الهجوم وبهذه الحدة من أصولي مثلاً لهوجم أكبر هجوم واتهم بالتخلف والظلامية ومعاداة الغرب والتقدم ولكن (الشاهد) علماني وباحث وأستاذ جامعي يعيش في أمريكا ويكتب بهذه الحدة والشدة، فكيف يفسر لنا إخوته ذلك؟

- الأولويات.. الأمس واليوم:

الطالب العربي وربما الشرقي عموماً حين يبتعث للغرب يعتقد أنه حاز الجنة والسعادة الكاملة.

هاشم صالح يسجل أحلامه ويقول: كنت أعتقد أن (الحل) يكمن في العلم، وكل باحث عربي غادر بلاده وتوجه للغرب وجامعاته يكون مسحوراً بتلك الفكرة، حيث أتاحت نشأة العلوم في الغرب، التفوق على كافة الأمم، ابتداء منذ القرن (16) للميلاد وحتى اليوم، ففلسفة المعرفة هي التي تدرس شروط إمكانية وجود المعرفة الصحيحة، وتمييزها عن المعرفة الخاطئة، وهي التي تبلور معايير التقدم وطرائق الاكتشاف والبحث العلمي، ولكن بعد فترة طويلة من (التخبط والتيه) رحت اكتشف أن (الحل)

---

(1) المرجع السابق، ص 36.

يكمن أولاً في العقيدة وليس في العلم والمعرفة وتحديداً يكمن في علم الطبيعة أو الفيزياء أو الرياضيات، وعندئذٍ فهمت أن (تحرير السماء) يسبق حتماً (تحرير الأرض) بل لا جدوى من تحرير الأرض قبل تحرير السماء، هذه السماء الضاغطة كالسقف فوق رؤوسنا... [1] أهـ

اختلاف واضح لأولويات الأمس عن أولويات اليوم، والحب من بعيد غير الحب من قريب، وذهاب السكرة ومجيئ الفكرة..

- حداثتنا المخادعة:

الكاتب (كرم الحلو) يبحث في (الحداثة) وكيف ينظر لها المؤيد المفتون والمعارض الغاضب، ثم يدلي أخيراً برأيه حيث لا يرى سوى (حداثة معطوبة، منقوصة، معوقة، مخادعة)، أربع صفات منفرة، ثم يلتفت إلى عالمنا العربي ليكشف عن إسهاماته التي تصل إلى درجة (الصفر).

يقول كرم الحلو، في حديثه الجيد: (الحداثة) في عرف بعضهم مرادف للكفر والانحلال الأخلاقي، والتبعية للغرب، أما في شرع (الحداثيين) فهي استبعاد لكل ما هو (تراثي أو ماضوي)، وكل ما يمت بصلة إلى (الذات) التاريخية وثوابتها الثقافية والعقائدية.. والحداثة في وجهها المادي العمراني – على رأي بعضهم – مقبولة لكن منزوعة من جذورها العقلانية ومن سياقها التاريخي الفلسفي.. وعلى ما يرى (آخرون) هي أن ثمة إنجازات مادية وروحية وراء الإنجازات المادية والعمرانية، حيث يوجد عقل وروح لا تستقيم الحداثة من دونهما.

وحين نتأمل في الواقع العربي – مطلع القرن (21)- انطلاقاً من هذه الرؤية (المتنورة) لمفهوم (الحداثة) نرى أن (حداثتنا العربية) هي (حداثة معطوبة منقوصة معوقة مخادعة) فالعالم

(1) الثقافة العربية في مواجهة الثقافة الغربية، ط1، ص 24 بتصرف قليل.

العربي (يغص) بمنجزات الحداثة المادية والتقنية، من أبسطها إلى الأكثر تعقيداً.

فإذا نظرنا في عالمنا المعاصر، وما فيه من بحوث واختراعات علمية وفكرية وثقافية، رأينا إسهاماتنا تكاد تقرب من (الصفر) مع أن في عالمنا العربي (233) جامعة حديثة، تضم أكثر من (عشرة ملايين) جامعي، وأكثر من (ألف) مركز للبحث، ومع ذلك فإن إسرائيل تتفوق علينا كماً ونوعاً.

ويختم مقاله: نحن بحاجة إلى (مصالحة) مع الحداثة، مصالحة مجهضة، فمنذ نهضتنا العربية إلى الآن لم نتجاوز بعد مرحلة (الصدمة).. [1] أهـ

استعراض جيد لواقع محزن، واختلاف ليس هو الأول، ولن يكون الأخير (الحداثة) يراها البعض طوق (نجاة) ويراها – الكاتب- (معطوبة، منقوصة، معوقة، مخادعة).

ويرى بحق أن البعض ما يزال تحت تأثير (مرحلة الصدمة) فمتى نتجاوزها إلى غيرها، ومتى نرسم موقفاً متوازناً يحدد الحسنات والسيئات، من غير تحيز ولا انفصال؟

– فقدان الوضوح مع تلقٍ بائس:

الغرب يقصفنا بكل ما لديه من أسلحة عسكرية وفكرية، فتضطرب ساحتنا، وتصير الرؤيا غير واضحة، ويصير رسم الموقف في غاية الصعوبة.. د. رضوان زيادة يدرس (العلمانية) كمثال فيرى أنها صارت (مجرد سجال) نقاش ونقاش بين مؤيد ومعارض، وليت الأمر يؤدي إلى إزالة التباس أو توضيح مفهوم.. (فالعلمانية) مثلاً مازال مفهومها غير محدد ولا مبلورة رغم كثرة الحديث عنها.. [2] أهـ

وقبل هذا يتحدث الكاتب عن (التلقي البائس) فيقول: المنطقة العربية غير قادرة على الإسهام – يقصد في الحضارة- ويقتصر دورها على (التلقي السلبي)، وفي الغالب يكون (سيئاً وبائساً) ويظهر ذلك عندما تقرأ (الإشكاليات) في غير سياقها التاريخي والاجتماعي، كما

(1) صحيفة الحياة في 1427/2/25هـ .
(2) تحديات الإصلاح، ط1 (سوريا: مركز الراية، 2006م) ص 109.

حصل في مصطلحات (العلمانية والاشتراكية والحداثة وما بعدها).. [1] أهـ

فإذا كانت المصطلحات غير واضحة فكيف يكون (التطبيق)؟ ستظل هذه المصطلحات سبباً للاختلاف، والشد والجذب، وكل ذلك يجعلنا نراوح في مكاننا، على حين يتقدم غيرنا، ويظل الغرب يمطرنا بأسلحته العسكرية، وبمصطلحاته، ونصيبنا (تلق بائس) ومواقف مختلفة متجاذبة أشبه بلعبة (شد الحبل)!

- ما هي الحداثة:

لعل من النافع المفيد أن نعرف ما تعنيه (الحداثة) وما بعدها، ومن قِبَلِ أهلها، فمفكر مثل (ميشيل فوكو) يرى أن الحداثة ليست (مشروعاً ناجزاً) وحكراً على الغرب، إنما هي ما يحققه تطلع المجتمعات نحو التغيير والانخراط في مشروع نهضوي تنموي...[2] أهـ

فما رأي العشاق الذين يُتصورون (الحداثة) جراباً يحوي كل شيء ويصلح لكل شيء؟

د. عبد الوهاب المسيري – المفكر العربي المعروف- يصف (الحداثة) بأنها (تنميط الواقع (الطبيعة والإنسان)، وفرض (الأحادية المادية) عليه، والهدف من ذلك إدارة وتوظيف (الإنسان) على أحسن وجه، باعتباره (مادة استعمالية).. [3] أهـ

فإذا كان كذلك فلا يختلف مثلاً عن أية مادة مثل (السماد الحيواني) فيسقط تكريمه وما يمتاز به، أي خلع القداسة عنه وعما سواه، فلا مقدس (وكل الذي فوق التراب تراب) فأين صار (العقل والإرادة)؟ أزَحْنا الله تعالى لنضع الإنسان مكانه، وجاء الوقت المناسب لنعتبره مادة كسائر المواد، فأين صار تقديس العقل؟

هل من النافع المفيد أن نقول للإنسان: أنت حيوان وكفى؟ ولا ميزة لك على الحمار أو الخنزير مثلاً؟

- الغرب غير مهتم بالحداثة والتحديث:

---

(1) المرجع السابق، ص 108.

(2) رضوان زيادة، الحضارة.. دراسات، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ص 102.

(3) في عالم عبد الوهاب المسيري، ط1 (القاهرة: دار الشروق المصرية) 121/2.

الكاتب والمفكر المعروف «أوليفيه روا» يكرر أن الغرب لم يفكر بالحداثة أو نشر التحديث عندنا، وكل ما يشغله (إعاقة الدول الإسلامية) من التحديث، وليس الأمر جديداً، فابتداءً من الدولة العثمانية وحتى اليوم ما تزال (السياسة) ذاتها.

يقول «روا»: إن أوروبا لم توفر جهداً (لإعاقة) الدول الإسلامية من (التحديث)، ابتداءً من الدولة العثمانية ومُحَمَّد علي، إلى الإطاحة بـ(مُحَمَّد مصدق) الإيراني، إلى الترسيم التعسفي للحدود، وكل ذلك كان يعيق قيام (دولة مستقرة) في المنطقة، ولعل آخر هذه الحروب (حرب الخليج)، التي لم تسفر عن أي جهد لإعادة ترتيب الخريطة السياسية، فقد رجعت الفعاليات نفسها والأنظمة ذاتها لتلعب جميعها (التمثيلية) نفسها، وفق موازين قوى استراتيجية مختلفة، باختصار: كان هاجس الغرب من «دزرائيلي» إلى «جورج بوش»، مروراً بـ (كلمنصو وكيسنجر) لم يكن ذات يوم قد لعب ورقة (التحديث) في الشرق الأوسط.. [1] أهـ

ما هو رأي العشاق عندنا بهذا الحديث الصريح، وهل مازالوا يراهنون على حراثة البحر؟ ألم يحن الوقت لإعادة النظر بالحداثة وما قبلها وما بعدها وبالأشقاء والأشقياء من أخواتها؟

- الحداثة عنوان أم ممارسة:

د. على حرب يتحدث عن أوهام الحداثة، ويطالب بأن ينقد كل أدوات المفهومية التي توظف في بناء مشاريعنا (التحديثية) بما في ذلك مفهوم (الحداثة) ذاته، وهو يرى أن الحداثة صارت (ملهاة) وتستعمل بطريقة (سحرية)، لذلك لا يكفي الانتساب إليها، كي يكتسب الخطاب مشروعية، والمتحدث بها حداثته.

علينا أن نصنع (حداثتنا) ونفرض وجودنا، فاليابان – مثلاً- قدمت مثالاً (نموذجاً) يمكن قراءته، فلم تصنع (حداثة فكرية) أو فلسفية، انطلاقاً من (حداثة الغرب) وطروحاته

(1) تجربة الإسلام السياسي، ترجمة نصير مروة، ط1، 1996م، ص 25.

الفلسفية، بل صنعت (حداثتها) كمجتمع منتج فاعل خلاق.. [1] أهـ

يشير د. حرب إلى ابتعاد اليابان عن الدراسات النظرية الفلسفية والتوجه صوب الإنتاج، وهو يلتقي مع ما طرحه (ميشيل فوكو) فليس المطلوب (الثرثرة) حول الحداثة، بل إنتاجها، وهذا يذكر بالحمار (بوردان) الذي تعلم الفلسفة وعشقها، وذات يوم جاع وعطش، واشتد عليه ذلك وقدم له الطعام والماء، فطرح على نفسه تساؤلاً: يبدأ بالطعام أم بشرب الماء أولاً، واستغرق ولم يصل إلى نتيجة حتى (هلك) جائعاً عطشاً.

فهل المطلوب أن نحتذي بطيب الذكر «بوردان» أم نترك الثرثرة وننتج حداثة تناسبنا – كما تفعل اليابان– دون اشتغال بالدوران حول القيل والقال؟

ولنذكر قول المصطفى عليه السلام: «**إِنَّ اللَّهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاثًا: فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا؛ وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ**» [2].

- الحداثي مدعي نبوة:

د. علي حرب يرى أن المثقف العربي (الحداثي) بنوع خاص يتعامل مع ذاته بوصفه صاحب مهمة (نبوية رسولية) هي تحرير الأمة من الجهل والفقر والظلم والتخلف، لكن المهمة بدت دوماً (مستحيلة) ولذا ترجمت غالباً بصورة (معكوسة) أو على نحو «مدمر» مما جعل المثقف العربي مصاباً دوماً باليأس والإحباط.. [3] أهـ

- قشرة حداثية لا أكثر:

د. هاشم صالح، سوري الأصل من تلاميذ مُحَمَّد أركون وحوارييه، يتحدث عن الحداثي العربي الذي لديه (قشرة) حداثية، ويعتقد أنه متحرر، لمجرد أنه ركب (قشرة حداثية)

(1) مجلة الاجتهاد، العدد (21)، السنة الخامسة، ص 95.
(2) أخرجه مسلم، عن أبي هريرة، رضي الله عنه.
(3) المرجع السابق، ص 96.

جديدة، فوق طبقة فكرية (قديمة راسخة الجذور).. [1] أهـ

أما د. برهان غليون فيصر أن العلمانيين والحداثيين يدَّعون التحرر وبينهم عتاة القبلية والعشائرية والطائفية –كما تقدم – ومن السهولة بمكان أن يدَّعي إنسان مثل الرئيس «بوش» والصهيوني «عتسيو» أنهما على اتصال مباشر مع الله ويتلقون الأوامر مباشرة، ودون واسطة.

فلو تصورنا – جدلاً – أن عشرة من زعماء الدول الكبيرة اعتقدوا جميعاً أن لديهم (جوالاً) يتصل بالله تعالى، ويتلقى الأوامر منه فكيف سيكون مصير العالم؟

– نحن وحقل التجارب:

منذ أكثر من قرنين ونحن (حقل تجارب) فاشلة ورواد الفشل يقفزون من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، معاداة تتحول إلى موالاة — من غير مقدمات– قفز (موانع) والنتيجة (قبض ريح، وركض خلف سراب).

يقول بعضهم[2]– لا فض فوه– جربنا الليبرالية والحكم العسكري، الديمقراطية والفاشية، تعدد الأحزاب والحزب الواحد القائد، الرأسمالية والاشتراكية، الانفتاح الاقتصادي والانغلاق، السير في ركاب الغرب وركاب الشرق، القومية والوحدة العربية، والانتماء الإفريقي، ساندنا الأنظمة التقدمية وآزرنا الأنظمة الرجعية.

لقد نادينا بالشعارات كافة، وتلونت أجهزة إعلامنا بألف لون، تغنينا بمدح الحكام ثم هجوناهم، أقمنا لهم تماثيل ثم حطمناها، سمينا الشوارع بأسمائهم ثم غيرناها، حاربنا إسرائيل ثم صالحناها، باركنا ثورات وانقلابات ثم انقلبنا عليها ولعناها، أقمنا اتحادات ثم ألغيناها، قاومنا النفوذ الأمريكي ثم استسلمنا له، سَخِرْنَا من الدول النفطية ثم رحنا نتلقى المساعدات منها، عاديناهم زمناً ثم صادقناهم.

---

(1) صحيفة الحياة، 1993/7/6م.

(2) انظر صحيفة الحياة، 2004/4/8م.

فما الذي بقي أمامنا لم نجربه بعد، لم يبق غير الحل الإسلامي، حل جدير بأن تتاح له فرصة لتطبيق شريعة الله، المستقاة من كتاب الله وسنة رسوله، يراها الأصوليون كفيلة بتوفير الحلول الحاسمة لمشاكلنا كافة، من الاغتصاب إلى الديون الخارجية.. [1] أهـ

بكلٍّ تداوينا فلم يجد ما بنا، فهل كُتب علينا أن نكون (حقل تجارب)؟ وهل كتب علينا أن نقلد حتى (عبادة الشيطان)؟

- الغرب ملهمنا فقد الثقة بنفسه:

منذ أكثر من قرنين ونحن نترسم خطوات الغرب، خطوة خطوة، فلا يشيع مذهب ولا فكرة إلا ولها (عشاق) عندنا ومن أهلنا.. المشكلة الآن أن هذا (المعلم) صار يمر (بفترة ضياع) بنفسه وقيمه، ابتداءً من الحكومة إلى القيم التقليدية والتربوية، إلى الدين والكتب المقدسة، كل ذلك بسبب الصراع من أجل (التقدم المادي)، حتى قال الفيلسوف (نيتشه) إجمع إجمع – أي المال- ذلك هو الشريعة والقانون، فإذا كان هذا حال الغرب، فما حال من يقلده ويترسم خطاه؟

ما تقدم ليس قصيدة (هجاء) ولكنه شهادة شاهد من أهلها غير مطعون بشهادته... يقول دكتور (كيفري لانغ) الأمريكي الأصل والجنسية[2]: أعتقد أن الغرب الحديث يمر بتجربة كبرى من ضياع الثقة بالحكومة والقيم التقليدية والتربية والعلاقات الإنسانية، وكذلك الكتب المقدسة والدين والله، كل ذلك قد اضمحل وتلاشى بسبب الصراع من أجل (التقدم المادي)، وقد خلَّف هذا الضياع فراغاً كبيراً، وأنجب أفراداً لا يعترفون بأي نظام فكري، وهكذا أصبحوا فوضويين فضوليين، مستعدين لأي وجهة نظر بديلة... أهـ ، فإذا كان هذا حال (المعلم) فماذا سيكون حال التلميذ المسكين أو العاشق الولهان؟

---

(1) صحيفة الحياة في 2004/4/8م.

(2) متى الملائكة تسأل، ترجمة منذر العبسي (دار الفكر، 2001م) ص 204.

- العلاقة بين التقليد والإبداع:

يقول علماؤنا: التابع تابع ولا يُفرد بالحكم، والمقلد تابع، والإبداع يتطلب (أصالة) لا يملكها المقلد.

د. حسن حنفي – الكاتب المصري المعروف- يتحدث عن (تقليدنا) للغرب، والذي يشمل الكثير من أمورنا، ومن ذلك (الأحزاب السياسية) فيقول: لما تولدت أحزابنا السياسية الحالية، عن تيارات فكرية حديثة (تعثرت) في رؤيتها للواقع، وفي حشدها للجماهير، إذ لا يوجد (عمل سياسي) إبداعي دون (أصالة)، بعيداً عن (التغريب) ومازالت أحزابنا السياسية حتى الآن، وخاصة (العلمانية) منها (تصوغ) القضية السياسية على نحو مغترب، وتجد (الحل) عند الآخر وليس بتحليل (الأنا).. [1] أهـ

ويرى أن الاستعمار السياسي (رحل) ولكن ليحل مكانه استعمار ثقافي يتمثل (بالاستغراب) المقابل للاستشراق، خصوصاً لدى الطبقات (العليا).. يعاود د. حسن حنفي الحديث عن (التقليد والإبداع)، ليحدد شروط (الإبداع) فيقول: لا إبداع ذاتي دون تحرر من هيمنة (الآخر)، ولا إبداع (أصيل) دون العودة إلى (الذات) الخاصة، بعد أن تقضي على (اغترابها) في الآخر، وتتجاوز هذه الأصالة مستوى الفنون الشعبية، والمظاهر الخارجية إلى مستوى القوالب (الذهنية) والتصور للعالم.. [2] أهـ

- عندما يكثر الوكلاء:

كنت استمع للشيخ (البشير الإبراهيمي) شيخ علماء الجزائر يكرر: «عندما كثر المجاهدون اختفى الجهاد»، وأزيد: عندما امتلأت بلادنا بكليات الشريعة والتربية، افتقدنا من يفقه مقاصد الشريعة، وضاعت التربية في بلادنا.

الأساتذة د. برهان غليون ود.رفيق حبيب ود. حسن حنفي وأمثالهم يَشْكُونَ كثرة

(1) مقدمة في علم الاستغراب، طبعة 1991م، ص 26.

(2) مقدمة في علم الاستغراب، طبعة 1991م، ص52.

(الوكلاء) للغرب، تنافسوا وتنافسوا، حتى أمسى أكبر مشروع لنا أن نترجم (ألف كتاب) ثم نضعها في مخازن الدولة لتكون طعاماً جيداً للجرذان، أو تحترق المخازن فنتّهم (الماس الكهربائي)، وتنتهي الرحلة.

د. حسن حنفي يقول: كثر الوكلاء (الحضاريون) في مجتمعاتنا، تنافسوا بينهم، في المعروض والمنقول، كثرت الدعاية بالرجوع إلى المصادر والمراجع بلغتها الأصلية، وكتابة المصطلحات بالإفرنجية، أمام المصطلحات العربية، خوفاً من سوء الاجتهاد، مع الشكوى من عدم (طواعية) اللغة العربية لمقتضيات المصطلحات الحديثة، كثرت المؤلفات الجامعية في المذاهب الغربية، ليظل أكبر مشروع لنا هو (ترجمة ألف كتاب) ... [1] أهـ

- نحن والتراث.. أخطاء شائعة:

بعض أهلنا اتخذ من (التراث) وسيلة يعلق عليها جل مشاكلنا، يتحدث د. حسن حنفي عن بعض أخطاء شائعة في الموقف من التراث[2]:

1- لقد نزعنا أنفسنا من بيئتنا الثقافية، إما إحساساً بالعار أمامها، أو خجلاً منها، أو جهلاً بها، أو تقليداً للغير أو انبهاراً به، أو رغبة في اللحاق بركبه.

2- زرعنا أنفسنا في بيئة ثقافية أخرى، ورحنا نشترك في (معاركها) مع إننا لسنا طرفاً فيها، فحولنا أنفسنا إلى (وكلاء) حضاريين للغرب، فهذا مثالي، وذاك واقعي، هذا عقلي وذاك حسي، هذا وجودي وذاك وضعي، هذا تحليلي وذاك بنيوي، هذا ماركسي وذاك برجماتي.

3- نهرب من الواقع ذاته فلا نرى أوضاعه ولا أزماته، ولا ندخل في تحدياته، نراه من غير ثقافة أصيلة فيه، أو كثقافة (طائرة) فوقه تحل محل الأولى، فيظل بدون حراك، لا يتغير

(1) المرجع السابق، ص 72 .
(2) المرجع السابق، ص 77.

بعد أن صفي (دمه) الأصيل، ونقل إليه (دم غريب)... أهـ

- موقفنا من التراث الغربي:

إذا كان لنا أخطاء تجاه تراثنا، فلنا أخطاء كذلك تجاه التراث الغربي، يقول د. حنفي: هناك ثلاثة أخطاء في موقفنا من التراث الغربي:

1- إخراج الثقافة الغربية من بيئتها المحلية، ومن ظروفها التاريخية، وكأنها (مذاهب مطلقة) وثقافة عامة، لا أرض لها ولا وطن، ثم جعل أنفسنا أطرافاً في معاركها.

2- منح الثقافة الغربية نوعاً من الإطلاق والتعميم ليس لها، ونشرها خارج حدودها، وتحقيق مآرب ثقافة المركز، باعتبارها ثقافة مهيمنة وموجهة للأطراف كافة.

3- محاربة الثقافة (المحلية)، إذا ما قاومت الثقافة (الوافدة) وإحداث صراع بين (الموروث والوافد)، وشق الثقافة الوطنية، والسقوط في الازدواجية الثقافية... [1] أهـ

لا يجادل أحد بأن الغرب يضغط - وبكل قوة - لجعل ثقافته وقيمه وتوجهاته- سائدة في العالم كله، ويساعده ويشجعه في ذلك مجموعة من (الوكلاء)، قد يبالغون في الحماس أكثر من الغرب، وهم يجدون في الغرب (راعياً وحامياً ورافعاً) لهم، ولذا فهناك (تخادم) أخدمني كي أتقدم وأخدمك، كذلك نجد أن (التغريب) يسبب لنا أزمة، ويشعل صراعاً.

الغرب الآن، وعن طريق الحكومات ومراكز البحث، يتدخل في كل صغيرة وكبيرة من قضايانا، بينما يخاف أن يقول كلمة لإسرائيل، في قضية مهما صغرت. أخيراً فالغرب لا يخفي أزمته، ولكن الوكلاء عندنا هم الرافضون، لأن رأسمالهم ما لدى الغرب، فإن اعترفوا بالأزمة، فيكون كمن ينكر أبوة والده..

- انتشار الشك الغربي:

الغرب منتج صناعي وزراعي وفكري، وهو يصدر للعالم ذلك كله، احتاجوه أم لم يحتاجوه، لذا يفرضون على العالم قضاياهم ومعاناتهم ومنها (الشك في كل شيء)، ومادام

---

(1) المرجع السابق، ص 77.

(المعلم) يشك ويتشكك فليس من حق (التلاميذ) إلا (المتابعة) والرقص على قرع الطبول أو نقر الدفوف.

د. حسن حنفي (المتتلمذ) على الغرب يكرر أن للغرب مشاكله ومتاعبه ومعاركه، وهي ليست مشاكلنا ولا معاركنا، ولكن ما الحيلة مع الوكلاء؟

يقول د. حنفي: نظراً لأنه لا يوجد شيء (لا يمكن الشك فيه) لذا لم يعد هناك (يقين) ولا بناء لا يمكن هدمه، ولم يعد هناك شيء (ثابت)، من هنا اتسم الوعي الغربي (بالحيرة) وعدم الاستقرار، والبحث الدائم عن شيء لا يمكن تثبيته أو التأكد من وجوده، أو حتى من إمكانية إدراكه، بالرغم من (المناهج الحدسية) ووسائل التحقق (المنطقي والعلمي).

لقد اتجه الوعي الأوروبي إلى (بؤرة) لا يمكن تثبيتها، لذا أصيب بالحيرة الدائمة، صار (قلقاً) لا يستقر له حال على منهج أو موضوع أو نتيجة أو غاية، مرة يحاول بالعقل، وأخرى بالحدس وثالثة (بالوجدان) ثم لا يدرك إلا الأجزاء.

(تتكافأ) عنده الأدلة، ليعود من حيث أتى... صارت العقلية الأوروبية (مكتسبة)، لكنها فقدت (فطرتها) ونورها الطبيعي، فخسرت نفسها، وإن توهمت أنها كسبت العالم، هذا القلق المستمر دفع نحو الكشف عن مذهب جديد، ليشبع رغبة آنية، ثم يتطور ينشئ مذهباً آخر جديداً وهكذا، فكل يوم يحمل جديداً ليصبح بالياً... [1] أهـ

شك وتشكك، وجري - كأنه - خلف سراب، سقوط في لا أدرية معتمة، اقترب نهارها من ليلها، ولع بالجديد لا نهاية له!

شاهد من أهلها:

أكثر من مفكر وكاتب غربي يدق أجراس الخطر، بالنسبة للغرب وحضارته، فهذا الكاتب (هرسل) في كتابه (أزمة العلوم الأوروبية) يقول: إن أزمة العلوم الأوروبية إنما هي في

(1) موقفنا من التراث، ص 662 .

حقيقة الأمر أزمة الوعي الأوروبي بالإنسانية، وقد تجلت هذه الأزمة في (المذاهب السياسية والأيديولوجيات والقيم الاقتصادية وفي الطاقة وفي الإنتاج والتسويق، وفي التضخم والتسليح والخطر النووي)، ويعبر عادة عن تلك الأزمة بمثل انهيار الغرب وسقوط الغرب، وانتحار الغرب، ونهاية الغرب.. [1] أهـ

فإذا كان الغرب كذلك فماذا سيقدم للعالم؟

- تجمع نطيحة ومتردية و...

الغرب الذي يعشقه الوكلاء من أبنائنا، يجمع بعض أعداء الداخل من المرتدين إلى بعض الصهاينة، إلى بعض الموتورين (يكدسهم ويثيرهم) في مشروع ثقافي غريب عجيب؛ كتبت صحيفة (الوطن) أنه توجد مجلة في (جنيف) ضد الإسلام يقوم بها ناشطون صهاينة مع كتّاب يهود وبعض (المرتدين)... [2] .

فهل يستطيع أحد أن يكتب أسطراً فيما تفعله إسرائيل وأمريكا؟

- للنجاح أكثر من أب فمن يتبنى الفشل:

كل مؤسسة تعمل معرضة للنجاح والفشل، ولكل نتائجه وتداعياته، د. برهان غليون يؤكد كثيراً فشل (الدولة القومية)، وفي كل مشاريعها الاقتصادية والسياسية والثقافية والإدارية والتربوية...إلخ.

1- على المستوى الاقتصادي، عجزت الدولة عن تكوين شروط (لنمو الإنتاج)، وتبع ذلك فشل خطط التنمية الوطنية، فتولد عن ذلك قيام نمط من اقتصاد (المضاربة) — نوع من الشركة- المستند إلى طبقة من (السماسرة) والمرتشين، همهم الأول تأمين مصالحهم أولاً وأخيراً، فأدى ذلك إلى تركيز الثروة في أيدي قلة، وتبع ذلك ازدياد (البطالة) بأنواعها وإخراج

(1) نقلاً عن د. حسن حنفي، موقفنا من التراث، ص 618.

(2) صحيفة الوطن السعودية، 1426/3/7هـ.

الأجيال من سوق العمل الوطني، تتجه نحو (الهجرة) لبلاد أخرى... إنه فشل كبير يتعلق (بلقمة العيش)، وينذر بإحباط كبير وتذمر عام.

2- على المستوى السياسي، فقد أدى الفشل إلى (تجميد تداول السلطة) واحتكارها إلى (فساد القيادة السياسية) في البداية ثم تكلسها وتحللها، مع عدم إمكانية وجود ونمو (بدائل) لقيادات شابة، حتى صار الهدف الوحيد للفئة الحاكمة هو المحافظة على السلطة والثروة معاً، فدفع ذلك لتصاعد المعارضة، وهذا يدفع بدوره لتحول النظام إلى (نظام احتلال أجنبي)، ثم ليندفع لشن (حرب وقائية دائمة) ضد المعارضين والمجتمع، ويأخذ شكل (سياسة رسمية) قد تقود لحرب أهلية، تبدأ بشنها الدولة، حفاظاً على مصالح القائمين عليها، وهذا ما يفسر انتشار (القمع) في أكثر من دولة، وبشكل واسع.

3- على المستوى الثقافي، تقوم الدولة بفرض (عقيدتها) أو مذهبها على الجميع، فتسقط الحوار وتصادر حرية (التعبير)، بل تمارس (الاستفزاز) للعقائد والأفكار وحتى القيم الاجتماعية، وتمارس الإرهاب النفسي والقهر حتى (للعواطف)، دافعة المجتمع نحو الشعور بالدونية، ليسهل إخضاعه وانقياده.. هنا تتحول الثقافة إلى (عقيدة سياسية) ومركز للتوظيف لحرب سياسية، مما يؤدي إلى شق الثقافة الوطنية إلى (تيارين) متعارضين الأول: وطني تقليدي، ممنوع من التعبير، الثاني: حديث المظهر والشعارات وهو مرتبط بالدولة، والنخبة الحاكمة، وهنا يسود الشعور بالحرمان والاستبعاد والتهميش لدى قسم كبير من أفراد المجتمع.. لقد صنعت الدولة (احتباساً حرارياً) – على شاكلة الاحتباس الحراري- ، عند هذا الحد تبرز نتائج الفشل للنظام الجديد، ومعه الإخفاق الكبير للمعارضة التقليدية بأنواعها من يسارية وليبرالية وغيرها، فيظهر الفشل في تبديل بنية النظام (المطلق) ثم يظهر أخيراً انهيار (عقائدية القومية الشكلية)، التي تقوم عليها مشروعية العديد من هذه النظم، وهنا تتجه الفئات (المهمشة) والمنكوبة إلى (المخزون الإسلامي) لتكوين رأسمال شرعي للمعارضة التي تزداد قوة واتساعاً وتنوعاً، يوماً بعد يوم.

إن الحديث باسم (الإسلام) له في السياسة مفعول (العودة إلى منبع القيم) التأسيسية للاجتماع العربي والإسلامي، في مقابل (الاجتماع الحديث المتهاوي)... [1] أهـ

أشعر أن د. غليون يقوم (بمسح) لأكثر من نظام عربي، شهد (بريقاً) وسنداً كبيراً من أكثر من قوة، لكن البريق ذهب وتحولت النار إلى مجرد (رماد)، وكل يوم يخسر النظام (صديقاً) ليكسب أكثر من عدو.. وهنا عدة قضايا:

- قضايا في العداوة والصداقة:

يُروى أن أبا جعفر المنصور – وهو من مثقفي خلفاء بني العباس- طرح تساؤلاً حول السقوط العاجل لدولة بني (أمية) قبل أن تكمل قرناً من الزمن، يظهر أن الإجابات لم تعجبه، فساق تفسيراً جاء فيه: كان لبني أمية أعداء وأصدقاء، أهملوا الأصدقاء ثقة بمودتهم، وحاولوا كسب الأعداء، وكانت النتيجة أنهم خسروا الأصدقاء ولم يكسبوا الأعداء.

«كارل شمدت» – الرئيس الألماني السابق- حين كان يدرس في الجامعة طرح (نظرية) ملخصها: إن السياسة تقوم على التمييز بين العدو والصديق، وأن العدو يجب تدميره لكونه شريراً سيستخدم قوته لضربنا اقتصادياً، وسيستعمل السياسة بشكل أفضل، فإذا ألحقنا الدين بالسياسة فسنجعل العدو يبدو وكأنه (ضد الرب) وضد الحقيقة، وضد العدل، وهذا يقوي السياسة، وكذلك سيقوي من عزم الأمة على تدمير العدو، لكن هذه النظرة (تنأى) بالسياسة عن الاعتدال والتوسط وتقودها إلى التعصب والتطرف، وبهذه الطريقة فالنهج (المحافظ الجديد) هو في غاية التطرف، فإقحام الدين في السياسة يجعل من الأخيرة أقل اعتدالاً، مما وصل إليه نهج المحافظين التقليدي... [2] أهـ

الملاحظات الأخيرة للكاتبة الكندية «رجيتا ساسكا تشوان» ومن تعليقها أن «كارل شميدت» كان عالماً ينتمي إلى (اليمين الألماني) المتطرف ومثله «شتراوس» ويحمل نفس

---

(1) نقد السياسة، ص 277-279 .

(2) اختطاف كارثة، المحرران ست جالي وجيري، ترجمة أبي بصل، طبعة 2007م، ص 134.

الفكرة في وجوب التمييز بين الصديق والعدو.

فإذا صرنا نتجاهل الصديق، ونعمل لكسب العدو، فإن مقولة المنصور ستصدق فينا تماماً.

ولعل الأسوأ من كل ذلك عدم تحديد الصديق من العدو، أو القول: كل من ليس معنا فهو عدونا.

– أمريكي: الليبراليون قلة وشرعيتهم أقل:

الكاتب الأمريكي «جون والترمان» يتحدث عن الليبراليين ومستقبلهم في الشرق الأوسط نشرته (قضايا النهار) وترجمته للعربية (نسرين ناصر) يقول الكاتب: إنه خلال زيارات «باول»، وزير الخارجية الأمريكية السابق، للقاهرة يخصص وقتاً للتحدث إلى مجموعة من المصريين من ذوي التفكير (الليبرالي)، ومعلوم أن الليبراليين يحظون باهتمام كبير، وربما لا مثيل له، من قبل بعض (صانعي القرار والمسؤولين الأمريكان) من أمثال «باول»، كذلك يدعو دبلوماسيون في واشنطن ولندن وباريس وعواصم أخرى (ليبراليين) لتناول الطعام (وشرب النبيذ) لأنهم يرون فيهم آمالاً أساسية لتحقيق (الإصلاح) في العالم الإسلامي، وغالباً ما يحصلون على (مبالغ طائلة) لتموين منظماتهم، التي لا تتوخى الربح.

بعض الليبراليين معروفون جداً، وبعضهم أقل شهرة إلا أن (الدعم المتزايد لهؤلاء يضر بهم كثيراً، فبدلاً من ترسيخ مكانتهم في بلدانهم تؤدي هذه (المظاهر) العلنية لدعمهم إلى تهميشهم أكثر فأكثر، وفي النهاية يؤدي (الدعم المضلل) إلى عرقلة (التغيير) نفسه، الذي يطالب به الغرب.

إن هؤلاء الليبراليين يتركزون في الجامعات والمنظمات الأهلية، وفي العادة هم يجيدون الإنكليزية والفرنسية، وهم مرتاحون للغربيين، وكذلك الغرب يرتاح لهم، إنهم يتقدمون بالسن، ويعيشون في عزلة أكبر، وأعدادهم في تناقص، وتأييدهم (ضئيل) بين السكان، أما (شرعيتهم) فأقل – في نظر مواطنيهم – وقد صاروا يمثلون (أفكار الماضي) الفاشلة، بدلاً

من آمال المستقبل (الجريئة)... إنهم يخسرون (المعركة) بسرعة، ولا يفوزون بقلوب الناس ولا بعقولهم.

أما الاهتمام الغربي فيلصق بهم أكثر وأكثر صفة (المتواطئين) كذلك تضعفهم الجهود الغربية لإضعاف العالم العربي، والمساعدة في إخضاعه.

إن تخصيص طاقة كبيرة للتحدث في المؤتمرات والمنابر الغربية كل ذلك يلهيهم عن العمل في مجتمعاتهم الخاصة، ومعظمهم يأمل أن تسلمهم أمريكا قيادة بلدانهم، في حين توجد مجموعات عربية (محافظة) تنفذ بفاعلية برامج مبتكرة، (مثيرة للإعجاب) هدفها تقديم سلسلة من الخدمات التي تؤثر في حياة الناس اليومية... الليبراليون يعتبرون مهمتهم قد انتهت وأنجزت حين يكتبون مقالة، أو يتحدثون أمام مؤتمر أجنبي...[1] أهـ

بالمناسبة أذكر أن شخصية فلسطينية (مسؤولة) كانت تتوسل إلى صديق كي تكف أمريكا عن مدحه، فكلما كثر المدح (احترق الرجل).. وبالمناسبة أيضاً فإن علمانياً – حتى نخاع العظم – حدثت له متاعب فعرضت إسرائيل عليه أن يهاجر إليها!

– علاقتنا بالغرب:

هناك من أهلنا من يرفض (الغرب) علماً ومعرفة وحضارة، جملة وتفصيلاً ويعتقد أن الخير كل الخير أن يعيش بعيداً (لا أرى القرد ولا القرد يراني) ومن أهلنا من يعشق الغرب، ويعتقد وجوب الأخذ عنه، وما لديه من حلو ومر، كما يقول د. طه حسين، وهناك من يذهب لأبعد ذلك، ومن يتوسط بينهما، فيطلب الإفادة، والاستفادة من المفيد النافع.

د. حسن حنفي يرسم هذه (العلاقة) في كتابه (مقدمة في علم الاستغراب) فيقول: تحولت مساحة كبيرة عن ثقافتنا المعاصرة إلى (وكالات حضارية للغير) وامتداد لمذاهبه: اشتراكية، ماركسية، ليبرالية، قومية، وجودية، وضعية، شخصانية، بنيوية، سريالية، تكعيبية.... إلخ، حتى لم يعد أحد قادر على أن يكون مفكراً أو عالماً أو فناناً، إذا لم يكن له

(1) صحيفة المدينة في 1425/7/25م.

(مذهب) ينتسب إليه.

بل وضعنا أنفسنا أطرافاً في معارك لسنا طرفاً فيها، وتفرقنا شيعاً وأحزاباً، كما تفرق القدماء، لكن فرقتنا هذه المرة لم تكن موقفاً من الذات، بل تبعية للآخر، فضاعت (وحدة الثقافة الوطنية)، بينما يبحث الكل عن (أصالة) ضائعة، وليجدها البعض في (الفنون الشعبية)... وعادة ما يتحول (التغريب الثقافي) إلى موالاة سياسية للغرب، مما يسبب لا حقاً ثورة الشعوب الوطنية، تأكيداً للهوية والثقافة الوطنية، وفي جدل مستمر بين (الأنا والآخر)...[1]أهـ

لقد تحالفنا مع الغرب – في الحرب العالمية الأولى- فكافأنا باستعمار بلادنا، حاربناه حتى رحل من الباب، ليعود من الشباك، فمن يحارب الاستعمار الثقافي وقد صار له وكلاء، حتى في مدافن الموتى، وبين الشحاذين، وكبار اللصوص، وزعماء السلب والنهب؟

د. حنفي يكرر – دون ملل – إننا حاربنا الاستعمار حتى ذهب، لكنه عاد من خلال الاستعمار الثقافي، وهكذا انتشر (التغريب) وجرى احتلال العقول والقلوب، وهو مما نعانية اليوم وبين الطبقة العليا... [2] أهـ

– لماذا ينجح الآباء ويفشل الأبناء:

يطرح د. حنفي تساؤلاً يتعلق بنجاح (آبائنا) في النقل الحضاري، بينما فشلنا في هذا الميدان فيقول: لماذا نجح قدماؤنا في احتواء (الآخر وتمثله) والرد عليه، وإكمال نواقصه، وحذف الزيادة منه، ولماذا لم ننجح بعد (حالياً)، بحيث احتوانا (الآخر)، حتى (ذبنا فيه؟...[3] أهـ

---

(1) مقدمة في علم الاستغراب، طبعة 1991م، ص 44.

(2) مقدمة في علم الاستغراب، طبعة 1991م، ص 25.

(3) المرجع السابق، ص 50.

وأجيب باختصار: لقد كنا أقوياء أولاً، وكانت لنا (مرجعية) نثق بها، وكنا (تلاميذ) نجباء.. أما اليوم فنحن ضعفاء (متشاكسون) لا مرجعية نتفق عليها ونثق بها، وأخيراً نحن (زبائن) لا غير، التلميذ يتعلم على أستاذه، وقد يتفوق عليه، يكمل نواقصه، يصوب أخطاءه، أما (الزبون) فغير ذلك، إنه لا يعرف سوى (قبض البضاعة) ودفع الثمن، والذي قد يكون مضاعفاً.

التلميذ (النجيب) قد يتقدم فيحتل كرسي أستاذه، أما الزبون فيعيش هو وأحفاده ويموتون وهم مجرد (زبائن).

الشعب الياباني تتلمذ على الغرب، واليوم يتفوق التلميذ على أستاذه، فهل يأتي يوم يتساوى التلميذ النجيب مع الزبون؟ هيهات.

- عندما تغيب المرجعية:

لن تعيش أمة عيشة كريمة بدون قيادة أو بدون مرجعية، وأشنع من ذلك أن تكون لها قيادة جاهلة، لا تحسن التفرقة بين العدو من الصديق، فقد تصادق عدوها، وتعادي صديقها، لكن الأقبح من هذا وذاك أن تتخذ أمة ممن استعبدها وحاربها، وناصر وما يزال عدوها عليها، تتخذ منه مرجعية، ويكون لها بين أبنائها (وكلاء) يسبحون بحمد (السيد) ليل نهار، ويدعون الأمة سراً وعلانية (لموالاة) هذا (السيد)!

د. برهان غليون يتحدث عن (المرجعية) فيقول[1]: لا تستطيع أمة أن تتمتع (بإرادة ذاتية) وقوة معنوية، ورؤية نظرية، وقاعدة معيارية فعالة، إلا بقدر ما تنجح في تأسيس (مرجعية ثابتة) عميقة الجذور مرتبطة بتاريخها، أو بتجربتها التاريخية، كذلك لا تستطيع جماعة أن تبني نشاطها أو تؤسس وجودها على مرجعية (خارجية) مستمدة من خارج تاريخها، ومستقاة من ثقافة أخرى، أي لا تستطيع أن تجعل من (رمز استعبادها وتهميشها)

(1) اغتيال العقل، ص 110.

مرجعاً لنهضتها الجديدة.. أهـ

وأسأل: هل توجد (شواهد) تنقض (نظرية غليون) قديمة أو جديدة، وما هي وفي أي شعب أو أمة؟

- عندما يصير العلم نقلاً والعالم مترجماً:

د. حسن حنفي يشتكي من (الاغتراب)، ويشاركه د. برهان غليون وأمثالهم، يقول د. حنفي: لقد أصبحت الثقافة الغربية ثقافتنا، وهو أمر يدعو للانتباه، فالعالم عندنا من يعرف التراث الغربي، والعلم هو المعلومات الوافدة من الغرب، والإنسان لا يكون (مجدداً) إلا إذا تعلم الوسائل الغربية، لقد صار العلم نقلاً، والعالم مترجماً، والمفكر عارضاً بضاعة (الغير)، ووجدت طبعة (هشة) من المذاهب والأفكار والنظريات (طائرة) فوق الواقع، ليست مستمدة من الموروث القديم، ولا نابعة من الواقع المباشر، وثمة (تنظير)، تتضارب المعلومات وتتعارض النظريات، بعضها ينفي بعضاً، فيحتار الباحث أمام العديد من المذاهب والأفكار المنتشرة فوق الواقع والمجتثة الجذور من أرضها، والمنتزعة من واقعها الخاص، ماذا يختار، وما مقاييس الاختيار؟ لقد زاد الكم زيادة رهيبة، ومع ذلك مازالت الفكرة الأساسية (غائبة).. [1] أهـ

إنه واقع محزن، وربما ضياع مؤلم، ومستقبل غامض، فهل من دليل يدل على الطريق ويأخذ بالأيدي؟

د. برهان غليون (يشكو) والشاعر يقول:

شكوتُ وما الشكوى لمثليَ عادةٌ ... ولكن تفيض الكأس عند امتلائها

فماذا في (كأس) الغليون؟

يقول د. برهان[2]: العقلانية العربية عندما تجعل من العلم (أساساً) لصحة معارفنا،

(1) مقدمة في علم الاستغراب، ص 70.

(2) اغتيال العقل، ص223.

بدلاً من أن تجعل من الانخراط في التجربة – أي فحص ومعاينة الواقع وسيلة لمراجعة (النظم المعرفية) والتحقق منها – اكتفت عقليتنا بـ(الاستهلاك العلمي)، بدلاً من ممارسة (الفعل العلمي) الحقيقي.. لذا نقول: إن العقلانية العربية التي تحولت إلى (علموية)، أي أيديولوجية تبشر بالعلم والامتداح الدائم له، وليس إلى منهج لمقاربة الواقع، فصارت منطلقاً نظرياً (للتدمير)، تدمير الواقع الحقيقي، واقع (الحداثة)، وهكذا صار المفهوم هو المتحكم بالواقع، بدلاً من أن يخضع له، ويتطور في ضوئه، وهذا هو مصدر (الاستلاب) النظري، وفقدان التجربة العلمية والنظر العلمي، وهكذا صارت (العلموية) أو الاستقواء بالعلم قاعدة (تحطيم) المعنى العلمي الحقيقي واستبعاده، وما علينا إلا أن نأتي به، أن ندخله عندنا، أن نفسح له المجال ونرعاه، وبذلك (حرمنا) أنفسنا من كل قدرة على مناقشته، أو الإضافة إليه..

لقد أصبح (معيار المعرفة اليقينية) عندنا هو قرب هذه المعرفة من معرفة (الآخر)، فهي بقدر ما تكون مكتوبة (بلغته)، مستمدة من أقواله ومناهجه ومعاييره، مرتبطة باسمه وبمعاهده وكتبه وشهاداته، فهي معرفة (حقة) وحقيقية، لذا صار (الصراع) على الشهادات (الأجنبية)، ومظاهر المعرفة الأجنبية، هي أساس التنافس بين الباحثين، لاكتساب (السلطة المعرفية) الثقافية.

إن نجاح (المثقف العربي) يتماشى أكثر مع انسجام أفكاره وأحكامه وأسلوب كتابته ولغته واهتمامه، وتطابق كل ذلك مع (المستشرقين) أو المتكلمين الغربيين والباحثين عن المجتمع العربي.. [1] أهـ

وبهذه المناسبة أذكر واقعة تمثلت في رفض طلبة عراقيين الابتعاث للدراسة بمصر.

– الابتعاث للغرب ومصر:

(1) اغتيال العقل، ص223.

كانت دائرة (الابتعاث) في وزارة المعارف العراقية تختار سنوياً مجموعة من الطلبة: توّجِه دارسي الطب مثلاً إلى إنكلترا، والهندسة إلى أمريكا، ووجهت دارسي الزراعة إلى مصر، وكانت مفاجأة أن رَفض الطلبة التوجه إلى مصر، وقالوا: نبتعث للغرب وإلا فلا حاجة للدراسة بمصر.. وهكذا استغنوا عن الابتعاث.

ومنذ أيام قليلة زارني رجل عربي، وخلال الحديث قال: لقد عزمت على دراسة شعر (المعلقات) دراسة نقدية، ولكوني لا أستطيع دخول بعض الدول العربية، فقد توجهت إلى بريطانيا، لأسجل للحصول على شهادة دكتوراه، وجاء الجواب: إن مثل هذه الدراسة الأفضل أن تكون في الجامعات العربية، فهي الأقدر، وراحت الجامعة البريطانية تتصل بالجامعات العربية، وحصلت على قبول (للدارس)، وهكذا عاد العربي للجامعات العربية.. ولكن بتوجيه من جامعة بريطانية، ومثل هذا يمكن أن يقال في (تحقيق) الكتب العلمية والنصوص القديمة، فالجامعات العربية هي الأعرق والأفضل.

- طالب فقه ومشرف شيوعي:

أرسلت (السودان) طالباً يدرس الفقه إلى بريطانيا، للحصول على شهادة الدكتوراه، ومن نكد الدنيا أن تعين الجامعة البريطانية أستاذاً (شيوعياً)، ليشرف على رسالة (فقه).

سمعت الزميل الدكتور يقول – في جلسة لمجلس القسم- : إن الدكتور الشيوعي قال: أنا شيوعي لا أؤمن بالله، ولا بالأديان ولا بالفقه، ولذا سوف يكون إشرافي (فنياً) بحيث تخلو الرسالة من التناقض أو الفجوات، وأما ما فوق ذلك فأنا لا أعترف ولا أقر بشيء مما تكتب في رسالتك.

طالب عربي يكتب رسالة في التفسير، يكون المشرف عليه المستشرق اليهودي العنصري (جولد زيهر) في المحصلة(!)

أحد طلبتنا في كلية التربية إلى إنكلترا يدرس الحديث، وفي اللقاء الأول مع المشرف سئل الطالب: هل لديك استعداد للاعتراف بخطأ السنة؟ ولما استنكر الطالب هذه البداية رفض الإشراف عليه.. إن عقدة (الخواجا) هي التي تحكمنا.

- مستشرق وآية التيمم:

يذكر العقاد، يرحمه الله، أن مستشرقاً راح يشرح آية التيمم ﴿...فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا...﴾ (النساء:43)، فأخذ المستشرق القاموس ونقل: تيمموا أقصدوا، صعيداً: الصعيد جنوب مصر.. فصار المعنى: على من يريد الصلاة، ولا يجد ماء فعليه أن يقصد جنوب مصر.

ذلك أنه لم يفرق بين المعنى اللغوي والاصطلاحي، فالمعنى اللغوي كما ذكر، لكن الصعيد في الآية (ما صعد على وجه الأرض) وليس صعيد مصر، وإن كان اللفظ مشتركاً، ومثل هذا الخطأ لا يقع فيه طالب علم مبتدئ من العرب.

- التنمية التنمية قبل خراب البصرة:

الفقراء والأغنياء يتصارخون (التنمية التنمية) وإلا، هرول الكل على طريقة (أشعب)؛ يقال: إن أطفالاً مشاغبين أتعبوا (أشعب) فأراد صرفهم فاخترع (قضية) وقال: هناك طعام يطبخ ويوزع على الفقراء، فهرول الأطفال نحو ذلك البيت، ولحق بهم (أشعب) وهو يقول: ربما كان هناك طعام حقيقة.

الكل يطلب (التنمية) ويتحدث عنها، كمثل الحديث عن الديمقراطية حتى عند من لا يحسن النطق بها (سليمة).

والدكتور عبد الوهاب المسيري، وهو الذي حرر (إشكالية التحيز) يرى أن (الغرب) قد بلور علاجاً للنمو الاقتصادي، بحيث تكون (التنمية) كبرى الأهداف للمجتمع، وكذلك صوروا أن نموذجاً واحداً تتجه إليه سائر البلدان، من هنا بذلت الكثير من دول العالم الثالث جهوداً كبيرة اعتماداً على (النموذج الغربي) للتنمية، والمفارقة أنه بعد انسلاخ أكثر من ربع قرن، فقد تبين بشكل واضح أن الطريق (مسدود)، وأن خطط التنمية الغربية لم تحقق أهدافها في (الأغلب)، بل راح الكثير من هذه الدول (يئن) تحت وطأة الديون، بالإضافة للتمزقات الاجتماعية والحضارية، مع الكثير من مشكلات في البيئة وسواها جعلت الكثير يعود للذات

(بالمعنى الحضاري).. [1] أهـ

فإذا لم تنجح التنمية – بحسب مدلولها الغربي– فما هو المطلوب إذن؟ نهضة شاملة مثلاً؟ وما شروط هذه النهضة... وسؤال آخر أكبر: كيف نقرأ تخلفنا؟

– قضية التخلف والأسباب الأساسية:

لا يجادل أحد بوجود (بلايين) من البشر يضربهم التخلف، بعضهم لا يحسن توفير طعامه ولا سكنه، لا يحسن زراعة ولا صناعة، مطلوب من الآخرين أن يطعموه ويسقوه وإلا مات، فما هي الأسباب وراء (التخلف)، وهل هي داخلية أم خارجية، أم من الإثنين معاً؟ إن الغرب مثلاً يعد من لوازم (نجاح التنمية) وجود رأسمال، وموارد بشرية تعمل لتطوير البحوث، مع أنظمة للمعلومات، فهل توفر ذلك يكفي (للتخلص) من التخلف؟

د. عبد الوهاب المسيري لا يعتبر هذه (العوامل) كافية، نظراً لوجود أزمة حادة دمرت النسيج الاجتماعي الحضاري، مع انهيار الوحدة الحضارية، وفقدان الدوافع للوجود والازدهار، وهنا تتجمع عوامل داخلية لتضاف إلى عوامل خارجية، وهنا يتساءل د. المسيري: كيف يمكن أن نستعيد وحدتنا وفعاليتنا الحضارية؟ وكيف نعيد بناء (الذات) بالمعنى الحضاري؟ بعد ذلك ينتقل إلى (الشروط اللازمة للنهضة).

وسأحاول أن أوجز ذلك بما تسمح به طبيعة البحث[2].

أولاً: جوهر التحديث:

إن جوهر التحديث يتطلب تحقيق الذات — بالمعنى الحضاري- وذلك بالقيام بالتحولات الحضارية اللازمة لما تتطلبه (الفروض) العلمية والتقنية، التي تمثل المداخل الضرورية للبقاء في المحيط الاقتصادي والعسكري الدولي، والاستفادة منها، والعمل على تجاوزها حضارياً، والعمل لإيقاظ القوى الموحدة في النسيج الاجتماعي الحضاري، مع

---

(1) إشكالية التحيز، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 752/1.

(2) المرجع السابق، 770/1-790.

البداية من الإنسان، والثقة به والاعتماد عليه في إحداث التحولات اللازمة، فالإنسان هو حجر الأساس، نعم الإنسان هو حجر الأساس، هو باني الحضارة، وهو القادر على هدمها، وإذاً فلتكن البداية منه، وأن يقتنع بذلك.

ثانياً: ترابط الهوية الحضارية بفعالية الإنسان:

إن ترابط الهوية الحضارية واستمراريتها مع قدرتها على (التجدد) رهن بفعالية الإنسان والقدرة على التعبير عن ذلك، مع نقل (المضامين الحضارية) عبر الأجيال، وهذا ليس رهن بالقدرات الإنتاجية فقط، بل ينبغي تنشئة الفرد كفاعل حضاري، وذلك باستيعابه لمضمون حضارته أولاً، كي يستطيع المشاركة في (البناء الجديد)، كما ينبغي نقل (التراث الحضاري) – بما تمثله خبرة الأجيال- في تعامل مع الطبيعة، ومع الحضارات الأخرى، ودون ذلك سوف يستحيل الاستمرار، وتنقطع المسيرة.

سمعت أن في اليابان أسواقاً تبيع أجهزة مصنعة مع نموذج (كتالوج) يأخذه الصبي وعليه أن يركبها ويشغلها، وهذا تمرين جيد، فبدلاً من شراء جهاز أو لعبة (كاملة التصنيع والتركيب) تعلم الصبي كيف يركب، بدلاً من كيف (يحطم) لعبته؟

– طالب ياباني (نموذج):

أرسلت اليابان طلبة للدراسة في الغرب، بعد نصف قرن من إرسال العرب لبعثاتهم، لذا طلبت اليابان بعض خبرات العرب في هذا.. أحد الطلبة ذهب ليدرس (الميكانيكا) وهو يعتقد أن ذلك يشكل (سر) تفوق الغرب، وكان يعتقد أنه سيلتحق بالمصانع، لكنه وجد الدراسة (نظرية) فانكب عليها، وذات يوم قرأ إعلاناً عن بيع (محركات) صغيرة لسيارات في إيطاليا، جمع كل ما لديه واشترى (محركاً) وعاد به إلى سكنه، فكر في تفكيكه أولاً، للتعرف على محتوياته، ثم إعادة تركيبه من جديد، لكنه خشي أن يفشل، فصار كل قطعة يفكها يرسمها على ورقة، ويعطيها (رقماً)، ففكك المحرك وأعاد تركيبه، ثم ذهب إلى المشرف (الديني) ليخبره بما فعل، استحسن لكنه أضاف (تحدياً) يتمثل بوجود

محرك معطوب، استهلكت بعض مكوناته، والمطلوب تحديد مكان التلف أولاً، وصنع قطعة بديلة سليمة وتشغيل المحرك، كان الأمر صعباً ومع ذلك أخذ محركاً وفككه وحدد القطعة التالفة، وذهب إلى مكان سبك المعادن واشتغل أياماً ليصنع قطعة جديدة سليمة، ويضعها في مكانها ويشغل المحرك.. نجاح كبير، جعل المرشد الديني يكتب إلى إمبراطور اليابان – وهذا قبل الحرب العالمية الأولى– وجاء جواب الإمبراطور بمباركة هذا العمل، وتقديم مبلغ (5000) جنيه إنكليزي، وحين أعلم الطالب بذلك قرر العودة لبلاده، وترك الدراسة وشهادة الدكتوراه، واشترى بالمال معدات وركب باخرة من ألمانيا ليعود إلى اليابان، وفي الميناء الياباني أخبر بأن الإمبراطور – المقدس آنذاك– سيقابل هذا الطالب تشجيعاً له لكنه أجاب: إنه لا يستحق هذا الشرف، وسيحاول صنع محرك ياباني وعند ذاك يشرفه مقابلة الإمبراطور.

استمر هذا الطالب الجاد بالعمل عشر سنوات، وصنع عشر محركات، وقدم الإمبراطور في قصره (قاعة) لتنصب وتشغل، وعندما دخل الإمبراطور القاعة والمحركات (تشتغل) علق قائلاً: هذه أعزب موسيقا أسمعها في حياتي.

سلم هذا الطالب على الإمبراطور، وذهب للمعبد للصلاة، وقال: نمت لأول مرة — منذ سنوات– أكثر من عشر ساعات متصلة... أه

وحين يكون الحاكم على شاكلة إمبراطور اليابان، ويكون الطالب على هذه الصورة من (الجدية)، فهل يستغرب أحد أن ينهض الشعب الياباني – المتتلمذ على الغرب – وأن يلحق به ويتفوق عليه؟

ثالثاً: المطلوب نهضة وليس مجرد تنمية:

سار النموذج الغربي في التحول ابتداءً من النهضة، ثم الثورة الصناعية فالثورة العلمية التقنية، هذا (النموذج) غير مرغوب لنا؛ لأنه غير متسق مع البيئة، والنهضة التي نتطلع إليها تختلف عن نهضة الغرب، ليس في الغايات فقط، لكن بالوسائل أيضاً، فالأهداف

ينبغي أن تكون مشروعة وكذلك الوسائل، ولا يكفي واحد منهما.

رابعاً: حلم الغرب كان الرفاهية:

أقصى أحلام الغرب أو المشروع الغربي الوصول (إلى الرفاهية المادية) كهدف أسمى، لكن ذلك ليس من أحلام حضارتنا، التي ترى الحياة الدنيا متصلة بالآخرة – ومجرد مقدمة لها – كذلك فالحاجات المادية ليست منفصلة عن الحاجات الروحية، والمطلوب (ضبط النفس) والاعتدال في الملذات الحياتية.

إن مضمون الحضارة عندنا (تحرير الإنسان) من كل أصناف العبودية، السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وحتى الفكرية، إذ لا عبودية إلا لله، الواحد الأحد.

خامساً: الكون وسيلة سخرها الله للإنسان:

فالإنسان لم يخلق الكون ولذا فإن تصرفه يجب أن لا يخرج عن أمر الله، فلا يقبل منه العبث ولا الإضرار به مثلاً، كذلك غير مقبول أن يحل الإنسان محل الله، أو ينازعه أو يغتصب بعض حقوقه، نحن جزء من هذا الكون الواسع، وإن كان خلق لنا كوسيلة، ونحن ننغلق على عالمنا الأرضي المحدود الذي ندركه، ونعلم حدود دورنا فيه فلا نتجاوزه.

سادساً: الزمن الدنيوي محدود:

إن الزمن الدنيوي محدود، لكنه غير منقطع عن الزمن السرمدي، يقول تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ (النجم:39-41).. إن قطع الحياة واعتبارها كل شيء مرفوض، فما هي إلا ساحة عمل لما بعدها، ومزرعة لغيرها، وتجاهل الآخرة قد يحوّل (الحياة) إلى غابة، (الحق) فيها للأقوى.

سابعاً: الفرد في الإسلام ليس مؤسسة:

للفرد في الإسلام وضع مختلف عنه في حضارة الغرب، فالفرد في الإسلام ليس مؤسسة قائمة بذاتها، تحمل مهارات وقدرات ورغبات، إنه (مخلوق مستخلف) في عقله ووجدانه وحواسه وبدنه ووقته، يقول تعالى: ﴿... وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ

خَلِيفَةً... ﴾ (البقرة:30)؛ والنفس في الإسـلام ليست (الإطار) المرجعي للإنسان، فهي في -حضارتنا- تحمل نوازع خيرة وشريرة، لذا فنحن مطالبون بنصر الخير على الشر ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ (الشمس:7-10)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الرعد:11).

ثامناً: النشاط العلمي ودوافعه:

يختلف النشاط العلمي في دوافعه عندنا وعند غيرنا، فالإنسان الغربي متطلع دوماً (للسيطرة والتسيد) على الآخرين وحضارتهم، وعلى الطبيعة، ليحقق أقصى معدل ممكن من (الرفاهية المادية)، لذا راح ينتج ما يحتاج وما لا يحتاج، وقد يضع عوائق أمام إنتاج الآخرين، كما قد يحجب العلم عن غيره.

والعلم في الإسـلام (أمانة)، فإذا قصد به وجه الله صار (عبادة).. إننا بحاجة إلى (بلورة) نموذج خاص (للعقلانية) يحكم مسار نشاطنا وإنتاجنا، فالعقلانية الغربية في العلم والتقنية تعتمد الإعـــلاء من حافز (الربح)، ومثل ذلك (السـيطرة) على الطبيـعة وقهرها -كأنها عدو - وما تسببه الدول الصناعية من تلوث راح يهدد الحياة البشرية كلها، بينما ينظر الإسلام للطبيعة كشيء سخره الله لخدمة الإنسان، لذا عليه عدم الإضرار به، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴾ (لقمان:20)، يقول عالم الاجتماع «أريك فروم»: ... ثمة عامل لا يقل أهميـة، وهو أن علاقتنا بالطبيعة اتسمت بـ(العداء الألد)، مع كوننا من نزوات الطبيعة، ظروف وجودنا تجعلنا جزءاً منها، وموهبة العقل تجعلنا نتفوق ونعلو عليها، ومن ثم فقد حاولنا أن نحل المعضلة، معضلة وجودنا، وذلك بنبذ (رؤية الخلاص) والمتمثلة في الانسجام بين الجنس البشري والطبيعة، فاتجهنا نحو إخضاعها وقهرها، وتحويلها لخدمة أغراضنا، حتى أصبح هذا (القهر) مرادفاً (لتدمير الطبيعة).

إن روح العداء والإخضاع أعمتنا عن حقيقة، وهي أن للموارد الطبيعية حدوداً يمكن أن

تستنفد، ويأتي الوقت الذي (سترد) فيه الطبيعة على (جشع) الإنسان... إن المجتمع الصناعي (يحتقر الطبيعة)، بل يحتقر كل ما ليس من صنع (الآلة)، ويحتقر الشعوب التي لا تصنع الآلة.

فالناس اليوم ينجذبون لكل ما هو آلي، وخصوصاً الآلة الجبارة، ولكل ما لا روح فيه، بل ينجذبون (للتدمير)... [1] أهـ

معلوم أن الإنسان صانع الحضارة، وناشر العمران، وفي الوقت ذاته هو عدو الحضارة، وناشر الحروب ومشعلها ومسعرها، مفسد للبيئة، ناشر للخراب، وكما شهدت البشرية ملايين خدمتها أعظم خدمة، فقد شهدت – وما تزال – طغاة عبثوا بالطبيعة، واستهتروا بحياة الأحياء من إنسان وحيوان ونبات... والله تعالى، حيث رسم للإنسان الأهداف من خلقه، حدد هدفين كبيرين الأول: (عبادة الله تعالى) فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ... ﴾ (الذاريات:56).

والهدف الثاني (عمارة) الأرض، فقال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا... ﴾ (هود:61).

وإذا قامت العبادة على (النص) الصحيح، فإن عمارة الأرض تقوم على المعرفة الجيدة بعلوم الحياة، ودون ذلك لا يتصور عمارة الأرض، فهل يعبد بشر اليوم ربهم عبادة صحيحة، وهل يشتغلون بعمارة الأرض كما ينبغي؟

تاسعاً: الثقة بالنفس:

لا يتصور قيام نهضة في شعب أو أمة لا يثقون بأنفسهم، ولا بثقافتهم ولا بحضارتهم، ولا بتاريخهم، أو لغتهم، والنهضة لا تتحقق بالأماني، أو الأحلام، ولا تقوم نهضة (بقرار) من حاكم، ولا تسقط كذلك بقرار من حاكم، فالنهوض يتطلب تكاتفاً من الحاكم والمحكوم، كما يتطلب عملاً دائباً.. وهنا نجد (خرافات) منها: أن (الجنس الآري) هو وحده باني الحضارة والمحافظ عليها، وهناك (أجناس) دنيا غير مؤهلة لإقامة حضارة، حتى

(1) تفسير التاريخ للباحث، الطبعة الأولى، 1993م، ص 180.

وإن واتتها فرصة.. خرافة كبيرة، فكل من واتته فرصة، وجدَّ واجتهد أقام حضارة ونجح في ذلك، وبالمثل فكل من أهمل حضارته فقد عرَّضها للسقوط، ولعل من الخرافات – وما أكثرها اليوم؟- أن يعتقد أناس أن بعض البشر (أصلح) بالطبع من غيره، ولذا فهم أرقى وأرفع، وأن (الطبيعة والتطور) صنعا البشر على هذه الصورة، ولذا فإن بعض الأمم يجب أن (تسود) والبعض يجب أن تكون خادمة مسودة... [1] أهـ

هذا (العفن) من اختراع (السيد المستعمر) الغربي، ولا دليل على صدقه، فهل يؤيد السادة (الوكلاء) هذا الهذيان (المنتن)؟

عاشراً: الحضارة لا تبدأ من الصفر:

البشر ينقلون خبراتهم وتجاربهم ومعارفهم عبر الحدود، وكل حضارة تخلف غيرها، تستفيد من سابقتها، وقد شهد عالمنا أكثر من (26) حضارة كما يرى المؤرخ البريطاني (توينبي)، كل منها فيه قديم وجديد، ذاتي ومقتبس، إذا أنكر الغرب ذلك اليوم، فقد عاش قروناً لم يكن لديه علم ولا معرفة، ولن تكون حضارة (اليوم) بدعاً مغايراً لكل الحضارات، وتفوق الغرب اليوم علمياً وتقنياً (ظاهرة حديثة) - بمقياس التحضر- ويوم أهدى الخليفة العباسي الرشيد إلى (شارلمان) ساعة، اندهش وشعبه، وربما اعتقد أن نفراً من الجن والعفاريت (تسكنها) وتحركها، وأن مكتبة (شخصية) لوزير عباسي (الصاحب بن عباد) كانت تحوي من المراجع والكتب ما يفوق كل مقتنيات المكتبات العامة في القارة الأوروبية بشهادة (ديورنت) في كتابه (قصة الحضارة).. وأختم: من المسلّم به أن اقتباس العناصر الحضارية هو أحد أهم شروط نمو الحضارة وازدهارها... [2] أهـ

أحد عشر: الحضارات مختلفة والمجتمعات كذلك:

الحضارات المتوالية تتفق في أمور وتختلف في أخرى، والمجتمعات كذلك، والله تعالى

(1) المرجع السابق، ص 27.
(2) إشكالية التحيز، 1/778.

خالق الكون: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ... ﴾ (هود:118-119) ولا بد من أخذ هذا بنظر الاعتبار، وتبع ذلك (تنوع الخبرات) التاريخية، أما محاولة (محو الاختلاف) وصب كافة شعوب العالم في (قالب واحد) فهذا يعني (سلب) هذه الكيانات والشعوب لقدراتها الذاتية على الحركة، وإهدار طاقاتها ثانياً، فعلى سبيل المثال- فالكثير من الشعوب الشرقية تجمع في سكانها (بدو وحضر) كما تجمع العديد من الأديان والخبرات التاريخية، ففي الهند – على سبيل المثال- (360) ديناً، فهل يقاس ذلك بشعب صغير يستعمل لغة واحدة، وله عقيدة واحدة؟

إن الذين يريدون فرض قيمهم على العالم كله – لمجرد كونهم أقوياء- يفعلون المستحيل، وقد بدأت حضارتهم تتآكل من الداخل، وعليهم الاشتغال بترميمها، بدلاً من فرضها بالقوة على (الغير).

لقد كانت الإمبراطوريات تفشل وتنهار كُلَّمَا توسعت، فهل من المفيد إعادة التجارب الفاشلة؟

- فوكوياما ومعارك المستقبل:

بمناسبة معارك المستقبل، فهذا (فوكوياما) الياباني الأصل، والأمريكي الجنسية والولاء، وهو مثل (دون كيشوت) يضع العالم كله بكفة وأمريكا بكفة، فالعالم المسكين مسوق (جبرياً) نحو ثقافة استهلاكية، وعلى الدول أن تذهب طوعاً نحو الثقافة الكونية الاستهلاكية ولن ينفع العناد... ويرى (فوكوياما) أن معارك المستقبل لن تكون أيديولوجية ولا اقتصادية، بل ثقافية وكفى، وإذا تساءلنا: أليس الأيديولوجية قسماً من الثقافة، إذ هي الأوسع؟

ثم ينسى ما تقدم – وبسرعة- فيقول: إن الحضارات كافة دائبة على اكتشاف (هويتها) الحضارية، ولديها الرغبة والإرادة والموارد اللازمة (لصب) العالم في قوالب غير القوالب الغربية، والأشد خطراً الحضارتين الإسلامية والكونفشيوسية، لوجود دول

مسلحة.. [1] أهـ

- فوكوياما والخيارات الصعبة:

يعرض فوكوياما على العالم (خيارات صعبة محددة)، وكأنه عمدة لقرية من قرى الهند أو أفغانستان، فيطرح أغرب وأعجب خيارات[2]:

1- زوال العالم، دونما أثر، زوالاً كاملاً، مع الثقافة والقيم، ومن التاريخ والمستقبل.

2- الاستسلام للتكنولوجيا (العسكرية الأمريكية) والتحول إلى مستعمرة لإمبراطورية (الخير).

3- المبادرة لاعتناق (العقيدة الاستهلاكية)، والتحول إلى رقم أو رمز.

- بين الحاجة والوسيلة:

توجد حاجة فيسدها الصانع بوسيلة، إلا أن الجديد أن توجد وسيلة أولاً ثم تخترع لها الحاجة.

بالمثل توجد وظيفة ثم يجري البحث عن شاغل مناسب يشغلها، في العالم الثالث يوجد إنسان فتنشأ وظيفة كي يشغلها.

أدوات الزينة للنساء تعددت وتنوعت، ومع (فن الإعلان) راجت وكثرت، مثل ذلك الملابس، ونوع البناء للبيوت والمحلات، كانت متطابقة مع البيئة، (فالطين) مثلاً بارد صيفاً، دافئ شتاء، استبعد ليعمل مكانه (الخرسانة) الباردة شتاء الحارة صيفاً، فتطلب الأمر (التكييف).. كان الطعام يتناسب نوعاً وكماً مع البيئة، تغيرت القاعدة فجاءت السمنة وتكدست (الدهون) فاخترنا (الرجيم)، كانت البيوت والمساكن قليلة الطوابق والأدوار، فلم يحتج الناس للمصاعد أو لرفع الماء، فلما كثرت الأدوار احتاج الناس للمصاعد والكهرباء لرفع الماء... يذهب الإنسان للبقالة فيشتري حاجته ويعود مسرعاً،

---

(1) ضياء الدين وميرل، الحلم الأمريكي، ترجمة فاضل جنكر، عام 2007م، ص 309 .

(2) المرجع السابق، ص 308.

اخترعنا (السوبر ماركت) فصار الداخل يشتري ما يرى مما يحتاج وما لا يحتاج.. كان الناس يطبخون قليلاً ويتناولونه، فصاروا يكثرون من المطبوخ فاخترعوا (الثلاجة) لتحفظه، كان الفائض يصل إلى الفقراء، فجاءت الثلاجة لتحرمهم منه.

كان الإنسان يسافر ماشياً أو راكباً حيواناً فيجد متعة في السفر، فلما اخترعت السيارات والطائرات تبخرت هذه المتعة.

كان لي قريب كبير السن، ذهب للحج وعاد بسرعة، سأله بعض زائريه: كيف كانت رحلتك في الطائرة؟ أجاب كنت متعباً فلما أخذت معقدي في الطائرة بمطار جدة نمت، ولم أشعر حتى حطت الطائرة بمطار بغداد.. فماذا رأيت!

كان الفلاح يزرع الخضروات والفواكه، فنجد لها الطعم والرائحة، واليوم نجدها – طوال العام – بلا طعم، ولا نشتاق لها.. كان الإنسان يتلذذ بأكل اللحوم، حين كانت تعيش الحيوانات بشكل طبيعي فلما قامت مزارع الدواجن، وحل العلف الصناعي محل الطبيعي، عرفنا جنون البقر ولحق به أنفلونزا الطيور، والله يستر من القادم الجديد... كان طالب الأمس يحفظ جدول (الضرب) ويتعلم جمال الخط، واليوم فالآلة الحاسبة أراحته من الحفظ، ووفرة المطبوعات جعلت خطه كخط (الأطباء) لا يحسن قراءته أحد.

– مطلوب نشر الثورة الصناعية:

إن الظروف التي مرت بها دول الغرب الصناعي، حيث سقط الإقطاع وقامت مدن صناعية استقطبت العمال، فنشأت الصناعة وتقدمت، وساعدت الآلة في التوسع الزراعي مع تحسين لنوعية البذور، فإذا أريد لدول العالم الثالث المساهمة (بالتصنيع) فلابد من أخذ ظروف مجتمعاتهم في ذلك، وإن أمكن أن يصبح العمال شركاء في الصناعة لضمان الإخلاص، واعتبار الشركة عائلة واحدة –كما في اليابان– فذلك خير، كذلك تؤخذ حاجة السوق بعين الاعتبار.

– تجربة أفريقية يابانية:

خلال رحلات إلى شرق وغرب أفريقيا، علمت أن دولاً أفريقية طلبت من الشركات اليابانية لصناعة السيارات أن تؤسس مصانع لها في الدول الإفريقية، لا أن تصدر لها سيارات كاملة الصنع، والحجة: أن وجود مصانع صغيرة تُمكن العمال من أهل البلد تعلم (الصنعة) لكن تصدير سيارات كاملة الصنع تحرمهم من ذلك.

- زخرفة المساجد في العراق:

طلبت بعض الحكومات العراقية من الغرب توجيه عمال من أجل القيام بزخارف من (الجبس) ولما باشروا العمل وصنع القوالب، وخلال أيام أتقن العمال العراقيون هذه الصنعة وأجادوها بشكل مثير للإعجاب.

- الإفادة من الخبرات المحلية:

لا يوجد بلد يخلو كلياً من خبرات محلية، وهذه الخبرات ثمينة، (فالتبن) مثلاً يمكن أن يكون أساساً لصناعة ورقية رخيصة، وسعف النخل مادة جيدة جداً لصنع (الفورمايكا)، وألياف بعض النباتات جيدة في صناعة الخيوط والحبال والأعلاف الحيوانية، الأسمدة والجلود لا يوجد بلد يخلو من تصنيعها.

بلد مثل (بنغلاديش) تعرف صناعة (الجوت) القنب منذ قرون، الجديد إهمال مثل هذه الخبرات كلياً... مثل ذلك بناء المساكن، وتخزين المياه وأساليب الري، فهذه معارف قديمة يمكن تجديدها وتحسينها.

إن انتشار نمط الحياة الاستهلاكية الغربي، وانتشار المنتجات الغربية وتوفرها يجعل الخبرات الوطنية تموت يوماً بعد يوم.. كان الطب يعتمد على زراعة بعض النباتات والزهور والبذور، فلما انتشرت الأدوية المصنعة انتهت تلك الزراعة.. صناعة السجاد اليدوي كانت شائعة في العالم الشرقي، ووصل الحال أن (مهر) المرأة يرتبط بنوع السجاد الذي تحسن حياكته، فجاءت الآلة لتحل مكان الإنسان، حتى امتلأت الأسواق بالسجاد الصناعي،

على حساب السجاد اليدوي.

- إنشاء الطرق ينشط الزراعة:

لنا تجربة متواضعة، فأنا من عائلة تملك (ماكينات) ترفع الماء من النهر، والمحصول نتقاسمه مناصفة مع الفلاحين، في البداية كان جل المزروع (قمح وشعير وذرة) وكانت الأسعار قليلة، حاولنا أن نشجع الفلاحين على زراعة الخضروات والورقيات، فوجدنا معارضة قوية، فالحبوب هي طعام الفلاح، تشكل قوته وطعام حيواناته، ومع مرور الأيام أفلحنا مثلاً بزراعة الخيار والطماطم والبصل والبطيخ، وأمثاله، واجهتنا مشكلة نقل (المحصول) فالفلاح له دابة واحدة ولا يستطيع نقل المحصول للمدينة، فإذا كثر المحصول وهبط ثمنه تُرك في أرضه، وكم مرة رمينا (البصل) في النهر.. لقد حاولنا تقليص زراعة الحبوب، حتى إذا قامت الحكومة (بسفلتة) بعض الطرق، وصار نقل المحصولات إلى العاصمة والمدن البعيدة ميسراً، اندفع الفلاح يزرع الخضروات أضعاف ما كان يزرع.. حاولنا أن نتحول نحو زراعة القطن فلم نفلح.. كانت بذور الخضروات سيئة، والأنواع رديئة، فلما حصلنا على بذور جيدة تحسن الإنتاج وتضاعف، وتطلع الفلاح نحو آفاق لم يكن يتطلع إليها مثل زراعة (الخس)، فلو جرى توجيه الفلاح لأمكن الارتفاع بالمحصول كماً ونوعاً، لكن الحكومة لم تكن تعير الفلاح كبير عناية، ولا الزراعة كذلك، وحتى النفط كان عائد (البرميل) أربعة سنتات، لقد كان الاستعمار ينهب أموال الفقراء لمصلحة الأغنياء في بلده .

- نحن والتكوينات القديمة:

الغرب ينظر لكثير من مكوناتنا الاجتماعية بأنها قديمة ومتخلفة ورجعية، مثل الأسرة والقرية والعشيرة، بل يعتبرها من عوائق (التنمية)، لذا فالمطلوب إزالتها، وليس العناية بها، لكنها عندنا موجودة وفاعلة، والإنسان يتلقى العقيدة والآداب الاجتماعية والقيم الأخلاقية من خلال الأسرة، لذا (فالمشرد) بعيد عن ذلك كله، والقبيلة يجمعها تضامن مطلوب ونافع بشرط أن لا تكون (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً).. إن الغرب (يختصر) المشكلات المعاصرة

ويردها إلى مشكلة واحدة هي (نقص الموارد)، فتكون قضية (اقتصادية) والاقتصاد صار علماً، والعلم علاج كل مشكلة.. وكل قضية لا يحلها العلم - في نظر الغرب - فهي مشكلة (زائفة)، وهكذا تذوب السياسة، ويُضحّى بالأخلاق، وهكذا يتم تحرير القيم الغربية، التي تحمل الكثير من التعارض مع قيمنا الحضارية، وهكذا يجري التحول إلى قيام تقليد (أعمى) للنموذج الغربي، فنفقد ما لدينا من قيم، لنكسب مظهراً (متغرباً) بدون مضمون، قشرة (حداثة) والباطن مخالف للظاهر.

- نريد مزج ما عندنا مع التقنية الغربية:

ما عندنا من أمور الزراعة والصناعة غير كافية، وما تقدمه التقنية الغربية، لدينا تحفظات تجاهها، والمطلوب (مزج) بين ما عندنا وما تقدمه التنمية الغربية، والحياة أخذ وعطاء، وكل حضارات العالم فعلت ذلك، وإن كان بدرجات مختلفة، البعض يدفعنا نحو اليأس: خذوا التنمية الغربية كما هي أو اتركوها كلها، فإذا تساءلنا: ما الدليل على صحة هذا (الطرح)، لم نجد جواباً شافياً.. أما التوقف عند حدود (مانملك)، فيحرمنا من بعض الفوائد والمنافع، وهذا (تحدٍ) نقدر حجمه، ماذا نأخذ؟ وكيف؟ هنا مربط الفرس، نحن بحاجة لنقل (أدوات البحث العلي)، لكننا لا نريد (فلسفة العلم) الغربي؛ لأنها تصادم الكثير من قيمنا لقد ترجمنا معارف اليونان مثلاً، وتركنا آدابهم؛ لأنها وثنية تؤمن بتعدد الآلهة وتصارعها المستمر.

لنأخذ (التجربة اليابانية)، فقد نقلت النظم السياسية والاقتصادية لكنها لم تنقل النظام الاجتماعي ولا الإداري، كذلك أهملت الفلسفة، ومع ذلك ظهرت فيها بعض أمراض الحضارة الغربية، فراحت تستعمر - لأول مرة في تاريخها - بلاداً مجاورة، وأشعلت أكثر من حرب، كان آخرها الحرب العالمية الثانية، ودفعت ثمناً غالياً حيث ضربت مدنها بقنابل نووية، وخضعت لأول مرة في تاريخها لاستعمار مباشر، لكنها - رغم كل الضغوط- لم تبتعد عن نظامها الإمبراطوري مثلاً، ولا نظامها الإداري، وحين انسحب جيش الاحتلال، هدأت

البلاد، ورفضت النمطين: الغربي والاشتراكي الشرقي، لتخطط لنفسها النظام والنهج الذي يناسبها، لقد حددت (بدقة) ما تأخذه من الغرب، وما ترفضه، فكانت تلميذاً نجيباً، لكنها لم تكن زبوناً (معصوب العين).

لقد نجحت اليابان في استعمال (طرق الإنتاج الحديثة) دون أن تدمر الطرق التقليدية، فمازالت (الشركة اليابانية) تعتبر نفسها (عائلة) لها أسرارها ومكانتها، ويعتبر مديرها (الأب) لهذه الأسرة، والشركة اليابانية لا تفصل عمالها وترميهم في الشارع، والمتقاعد منهم تفتح له محلاً، وابنه يحل مكانه، العامل الياباني لا يترك شركته لمكسب، ولو فعل فلن يجد من يقبله، وهو يحافظ على سمعة وأسرار شركته، كما يحافظ على كرامة وشرف عائلته(1).

ويمكن القول: إن التجربة اليابانية تشكل نموذجاً جديداً، وكذلك التجربة الصينية والماليزية، ولم تتوقف التجارب عند التجربة الغربية، ولن تكون آخر تجارب البشر، وعلى (الوكلاء) أن يكفوا عن التغزل بالنموذج الغربي، فغزلهم يدفع لكراهة هذا النموذج.

- نريد إعادة النظر في التعليم:

التعليم وسيلة لصبغ الأمة بطابع محدد، كان لدينا تعليم موروث شاخ، ولم نجدد في أهدافه ولا وسائله، وإلى جانبه تعليم (جديد) هو تقليد للنموذج (الغربي) في الأهداف والوسائل، تعليمنا الموروث مشرّق والثاني مغرّب، الأول زاهد في التجديد في أهدافه والوسائل، والثاني غير مستعد لإعادة النظر وإن ظهر (عقمه) والسؤال: ألا يمكن إعادة النظر في النموذجين؟ مع محاولة الدمج، لإيجاد نوع يحمل روحاً بحيث يعتبر (العمل العلمي) عبادة ويجدد في الوسائل، وما أكثرها!

لقد كانت مدارسنا هي الأفضل، لكن عجلة الحضارة دارت وأسرعت وظلت مدارسنا

(1) للباحث مؤلف عنوانه: في أعماق التجربة اليابانية، طبع عام 2000م.

كما هي ولا جديد لديها.

- الشيخ الكيلاني ومؤتمرات لوضع المناهج:

في القرن السادس الهجري قام الشيخ (عبد القادر الجيلاني) شيخ الحنابلة والصوفية، بعقد مؤتمرين؛ واحد في العاصمة بغداد، والآخر في مكة، جمع فيه ما استطاع من مديري المدارس والمهتمين، في زمن كان (الجمل) أفضل وسيلة مواصلات فأعيد النظر في مناهج المدارس والوسائل واعتبرت مدرسة (الشيخ الكيلاني) ببغداد (مدرسة عليا) يتوجه لها خيار الطلبة[1].

مدارسنا الجديدة وجامعاتنا تعرف الكثير عن علم الاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، والإدارة، لكن زادها الإسلامي قليل ويشبه العدم، وقد يتجه لإثارة الشبهات، والوقوف موقف (العداء) من التراث والتاريخ، وكأن روح المستشرق قد تلبسته وتقمصته، فالباحث يستبطن العداء، وإن كان يتظاهر بالحياد، وهنا سوق للنفاق، ويتشرف بلقب معتدل أو متنور، أو غير أصولي، أما من يكتب السباب فيكرم أكبر تكريم(!)

أستاذ جامعي من الجزائر يقف في مؤتمر صهيوني ليعلن أن الجهاد رجس، وأن اللغة العربية متخلفة، ليس لديها إلا (نتف) من الفقه والعقائد(!)

وأستعيد مقولة نيتشه: من يحتقر نفسه وأمته ينتحر، ومن يحتقر الآخرين فهو عنصري.

- النهوض ليس نزهة:

النهوض بالأمة ليس نزهة، ولا يحصل بين يوم وليلة، ولا تنهض أمة بقرار سياسي من أعلى، ولا بمجرد رغبة من أسفل، ولا بد من خطة سليمة، ووسائل عملية موصلة، ومن السهولة بمكان وضع خطط جيدة، ورسم أهداف مرموقة، لكن المطلوب فوق ذلك وسائل

(1) ماجد عرسان الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس، طبعة عام 2003م.

عملية، والناس عادة لا يختلفون كثيراً حول الأهداف الجيدة، لكنهم يختلفون حول الوسائل الموصلة والمؤدية، وفوق هذا وذاك فإن وضع ألف نظرية أسهل وأيسر من تطبيق واحدة، ذات يوم وضع (أفلاطون) خطة للعمل السياسي، أعجب بها أحد تلاميذه، وكان حاكماً، وعند التطبيق فشلت، وكاد أفلاطون أن يدفع حياته ثمناً لذلك الفشل.

وكم حاكم فاشل رفعناه فوق الأعناق، لمجرد أنه يحسن الكلام أو يجيد التلاعب بالعواطف، وله جرأة على العباد، أو يحسن السب والشتم، واللعن والقذف!

إن النهوض يتطلب الكثير من المعارف والإخلاص، والله تعالى يخاطب بعض أنبيائه فيقول: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف:108).

فإذا كانت الدعوة لله تتطلب الإخلاص والبصيرة، فما تحتاجه نهضة شعب أو أمة هو خطة محكمة، مع وسائل عملية، وأن يشارك فيها الحاكم والمحكوم معاً، وأن تقتنع الأمة بها وبجدواها، وأن تبذل جهوداً كبيرة لتسويقها والترغيب فيها.

– لماذا توقفت الحضارة الإسلامية:

الحضارة كالمخلوق (الحي) تولد وتنمو وتنضج وتشيخ وتنهار، والفارق في (المدة) الزمنية، فعمر الإنسان مثلاً والحيوان قصير، وعمر الحضارة قد يمتد قروناً.

العرب خلال القرون من (8-14) للميلاد كانون الأفضل والأكثر تقدماً في العالم، وفي كافة الميادين، فلماذا لم ينجحوا في (العلم الحديث) (توبي أ. هاف) في كتابه «فجر العلم الحديث» يحاول الإجابة عن هذا التساؤل، ثم يضيف تساؤلاً: لماذا انهار وتراجع الفكر العلمي والعمل في الحضارة العربية – الإسلامية، بعد القرن (13)، مع أن العلم العربي كان منذ القرن (الثامن) أكثر العلوم تقدماً في العالم، وقد تجاوز بكثير ما كان في الغرب والصين، وذلك في كل الميادين للبحث، ابتداء من الفلك والكيمياء والرياضيات والطب

والبصريات... لقد كان للعلم العربي التفوق التقني على مدى زاد على (خمسة قرون)، فلماذا لم ينجب (العلم الحديث)؟

إن ما يطلق عليه العرب (علم الأوائل) كالعلوم الطبيعية، في مقابل العلوم الإسلامية والعربية كالتفسير والحديث والفقه وعلم الكلام والشعر واللغة، كل ذلك كان بدافع من حب الاستطلاع، إضافة لدوافع دينية، بحيث بلغ أعلى مستوى للتقدم العلمي، لكن ذلك لم يكن بهدف خدمة (علوم الأوائل) لذاتها، فمن أجل (قسمة المواريث) مثلاً اعتبر الحساب موضوعاً مهماً للدراسة، ومن أجل تأدية الشعائر مثل الصلاة، كانت الحاجة لتحديد المواقيت، ومن ثم استخدام الهندسة ومثلها حساب المثلثات بهدف تحديد القبلة.

فإذا درست أسباب (تدهور) الحضارة الإسلامية فإن (هاف) يحدد أسباباً عنصرية عرقية مثل السيطرة الدينية، مع الطغيان السياسي، إضافة إلى وسائل تتصل بالبواعث النفسية والاقتصادية، فضلاً عن إخفاق فلاسفة الطبيعة العرب في تطوير المنهج التجريبي، وقد انبثق عن هذه العوامل الأساسية، عوامل أخرى فرعية، فالطغيان السياسي أفرز تعصباً دينياً تجاه (العلوم الطبيعية)، ونشأ ما يعرف بالعلوم (السرية) فصعد التصوف والحركات السرية (الباطنية) في القرون (12، 13) للميلاد.. [1] أهـ

المعروف أن العرب بدأوا الترجمة في أواخر العصر الأموي، وجرى التوسع في العصر العباسي، وذكرت بعض (كتب التراث) أن راتب مدرس الفلسفة كان يومياً (ثلاثة دراهم) بينما راتب مدرس السنة (نصف درهم).

أما تطبيقات العلوم في مواقيت الصلاة أو تحديد القبلة فلا عيب في ذلك، وهو تطبيق جديد، وأما التعصب فهو بسبب الحروب الطاحنة وكثرتها، فعد بعض المستشرقين حصول (2500) معركة كبرى مع الغرب، ومارست الجيوش الصليبية البربرية القتل والنهب ليس للمسلمين فقط، بل شمل نصارى (القسطنطينية) مثلاً، وذات يوم جمع الصليبيون ما لديهم

(1) فجر العلم الحديث ترجمة أحمد صبحي، عالم المعرفة، العدد 219، 173/1.

من أسرى فقطعوا رؤوسهم ووضعوها على دواب ووجهوها إلى بعض مدن الشام.

هذه الحروب الطاحنة مع الثورات الداخلية والانشقاقات، صرفت الجهود والأموال، ليس للعلوم والمعارف، ولكن للحروب والثورات، إضافة لانتشار الفرق من باطنية وغيرها، مثل الحشاشين والقرامطة، وكل ذلك جعل الجهود تتوجه بعيداً عن العلوم والمعارف.

والخلاصة: تمزق داخلي وانشقاقات وثورات شبه دائمة، وحروب خارجية طاحنة، فمن يهتم بالعلوم والمعارف؟

– ابن خلدون: عللنا.. المسببات والعلاج:

كتب (د.مُحَمَّد عمر شابرا) بحثاً باللغة الإنكليزية عنوانه: (علل العالم الإسلامي المعاصر: المسببات والعلاج)، وقد ترجمته إلى العربية (علياء وجدي) ونشر ضمن مجموعة بحوث تحت عنوان (الأمة وأزمة الثقافة والتنمية) استهلك البحث (35) صفحة، وهو دراسة جادة جديدة[1]..

يقول د. مُحَمَّد عمر: يذهب عدد من العلماء الغربيين إلى أن الإسلام لعب دوراً إيجابياً في تنمية المجتمعات الإسلامية في الماضي، فهو العامل الوحيد المفسر لمجتمع بدوي اتسم بعداوات ضارية، وندرة في الموارد، مع طقس قاس، يفتقد متطلبات النمو، وقد استطاع، مع ذلك، أن يتطور بهذه السرعة، ورغم الظروف، وأن يقف بحزم ضد الإمبراطوريتين (البيزنطية، والساسانية) وهما الأعلى، فكرياً ومادياً، ووفقاً لآراء كل من (نورث وتوماس)، فقد بدأ هذا المجتمع في الازدهار في القرن السابع حينما كانت أوروبا عبارة عن مجتمع بربري كبير، وحتى القرن العاشر يقول: المؤرخ (توينبي) : إنه لولا الإسلام لم يوجد ذلك الانتشار غير العادي للقوى الروحية الكامنة، التي حول بها الإسلام مجتمعه، وبالتالي غيّر وجهته، «عبر ستة قرون».. لقد قام الإسلام بتفعيل جميع عوامل التنمية تفعيلاً جيداً، فساهم في ارتقاء الأفراد مادياً ومعنوياً، وهم القوة الأساسية الكامنة

---

(1) علل العالم الإسلامي، ط1 (دار السلام، 2007م) 1/391-426 .

وراء صعود أو سقوط أي مجتمع، كما غير من نظرتهم للحياة بإعطائها معنى وغاية، كما وفر مؤسسات وقيماً معنوية ميسرة للتنمية، وصنع مناخاً ملائماً للرقابة، على نحو ساعد على تغيير خصائص المجتمع.. ولقد أقام الإسلام نظاماً سياسياً ذا توجه خلقي ينتخب فيه الناس خليفة يحكم وفق الشورى، ويكون مسؤولاً أمام الناس، ومن ثم قدم إطاراً لما يسمى الآن بـ (الحكم الرشيد) لضمان العدالة والكرامة والمساواة واحترام النفس، فاستفاد الجميع من التنمية، وخاصة الفقراء.. فقد أقام الإسلام حكم القانون، وكفل حرمة الحياة والملكية، وكرامة الفرد، وأعطى مكانة أعلى، واحتراماً أكبر للمزارع والحرفي والتاجر، مقارنة بما كان لهم في الديانتين (المسيحية، والمزدكية).. لقد صنع وشجع حافز الأمانة والاستقامة والعمل الدؤوب، فتراكم رأس المال والعمالة، ومعدلات جمركية قليلة، في منطقة أفسدتها العداوات القبلية، والحروب المستمرة، بين الإمبراطوريات، مع قطع طريق القوافل والضرائب العالية.

لقد كان هذا العصر (الكلاسيكي) للإسلام الذي نضجت فيه تلك الحضارة الجديدة، والتربية الأصلية، التي ولدت من خلال احتشاد العديد من الأجناس والتقاليد، كما تم استيفاء مطالب التنمية، التي أكد عليها كل من «نورث وتوماس»، وتعترف «شاتزميلر» بذلك إذ تقول: جميع العوامل التي مكنت أوروبا من النجاح، كانت متاحة للإسلام قبل ذلك الحين، وبوقت كبير.. ونتيجة لذلك حدثت «دورة التنمية» اقتصادية كاملة، شملت الزراعة والتجارة والحرف، وأدت إلى ارتفاع جوهري في الدخل، لكل من الأفراد والدولة معاً.

ولقد حظي التعليم والبحث بدعم عام كبير، فأدى ذلك إلى تحسين في المهارات، وتنمية علمية ونهضة فكرية، وتوفر مناخ لما أطلق عليه (فليب حتى) صحوة فكرية كبيرة، شارك فيها العلماء في كافة المجالات، ومن مختلف العقائد، ودون تمييز، وقد أمكن المحافظة على هذا التفوق ما يزيد على، أربعة قرون، من (منتصف القرن الثامن — منتصف القرن الثاني عشر) وعندما تراجع استمر الإسلام في تقديم إسهامات جوهرية، لما يقرب من قرنين على الأقل.. أهـ

استعراض أكثر من جيد، وبحث علمي متوازن، ينتقل الباحث بعده للحديث عن أسباب التدهور وهذا ما يعنينا كثيراً.

- أسباب التدهور:

لكل من التقدم والتخلف أسبابه ومستلزماته، لذا فكل من أخذ بأسباب التقدم يتقدم، وكل من تضربه علل التخلف يتخلف، لا فرق في ذلك بين مؤمن وكافر، ولا بين آري وسامي، ويخدع نفسه من يتصور وجود شعب مختار ولكن يوجد شعب مختال نرجسي معجب بنفسه، كأن الله تعالى خلقه من طينةٍ خاصة، وفضله على سائر خلقه تفضيلاً، ليس هناك محاباة خاصة، بل سنن عامة للصعود والتقدم، وأخرى للتخلف والهبوط، وكل من أخذ بسبب جاءت النتيجة وفق ما أخذ ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف:49).

يستعرض د. مُحَمَّد عمر، جملة أسماء لباحثين - مسلمين وغيرهم- يتناولون الأسباب وراء تدهور المسلمين، من بينها:

1- الانحلال الأخلاقي: ولمالك بن نبي، يرحمه الله، نظرية يرى فيها: أن الحضارة تبدأ روحية، فيها الكثير من الإخلاص ونكران الذات، تليها مرحلة عقلية (تنظر وتفلسف) المرحلة الأولى، فتنتشر العلوم والمعارف، ويبرز جانب (التحضر) يعقبها مرحلة هياج الغرائز، حيث يتجه الناس للملذات، وتتعفن الأخلاق، فتتدهور الحضارة وتنهار.

2- فقدان الإسلام (لديناميكيته) وحركيته، فشاع التشدد والتعصب، وانقسم المجتمع، وكثرت الثورات.

3- تدهور النشاط العلمي، وجمد النشاط الفكري، وقل الإبداع.

4- توالي الحروب الداخلية والخارجية، وتعرض البلاد الإسلامية لغزوات خارجية متواصلة.

5- كل ذلك دفع لإحداث أكثر من خلل مالي وأمني فتناقص النمو والاستثمار.

6- حدث تدهور في ميادين الزراعة والتجارة والحرف، مع ضياع للمناجم والمعادن النفيسة.

7- توالي الكوارث الطبيعية كالمجاعات والأمراض الفتاكة.

وأختم بذكر قواعد رائعة للطرطوشي (الأندلسي) في كتابه (سراج الملوك) رتبها ترتيباً رائعاً فقال: لا سلطان إلا بجند، ولا جند إلا بمال، ولا مال إلا بجباية، ولا جباية إلا بعمارة، ولا عمارة إلاّ بعدل.. [1] أهـ

فإذا جرى تسريح الجند بحجة عدم توفر المال، كما حدث قبل سقوط بغداد عام (656هـ)، وإذا شاع وانتشر الظلم، فكيف تزدهر حضارة أو تبقى؟

لماذا عجزنا عن العلاج:

الإنسان يمرض فيعالج بالتداوي، والحضارة تمرض فإذا شخص المرض وجرى العلاج فقد تتعافى، والباحث د. مُحَمَّد عمر، يبحث عن جواب لفشل المجتمع عن علاج الأمراض، التي ضربته لدى المفكر الكبير (ابن خلدون) فهو من كبار مثقفي زمانه، تتلمذ على (ابن رشد) الفيلسوف المعروف، وقد جمع ابن خلدون بين الدراسة النظرية والاشتغال بالسياسة، حتى شغل وظيفة حاجب لحاكم بجاية، في الشمال الأفريقي، لذا راح يبحث عن أسباب العجز في الحقل السياسي أولاً، فشخص السبب في الانتقال من خلافة راشدة إلى ملك عضوض، وهو يستلهم في ذلك ما ورد في السنة، فيرى أن القيم قد تراجعت، كما حصل خرق للنظم، وأُسيء استخدام موارد الدولة، فازدادت الضرائب فوقعت (الدولة والعدالة والتنمية) ضحية، لذا تراجع تضامن الناس، كما تأثر الحافز للعمل والإنتاج، وكثرت النزاعات، وانقسم المجتمع إلى فئات متناحرة، فساد بسبب ذلك نوع من الركود، وهكذا فقد الإسلام حيويته ولعدة قرون.. [2] أهـ

(1) سراج الملوك، تحقيق جعفر البياتي، ط1، سنة 1990م، ص 170.
(2) الأمة وأزمة الثقافة، 395/1.

فهل تكفي هذه العوامل السلبية لعجز المجتمع عن العلاج؟ ابن خلدون لا يكتفي بذلك، بل يضع قواعد تترجم رأيه.

- قوانين ابن خلدون الكبرى:

حاول (الباحث) أن يستقرئ تصور ابن خلدون لقوانين كبرى يمكن أن تكون أداة (للنهوض والتقدم) فيما يسميه علم العمران وهو شغله الشاغل في مقدمته لكتابه (ديوان المبتدأ والخبر...) وقام الباحث بطرحها وفق المنطق والترتيب التالي[1]:

1- قوة الملك لن تتحقق إلا بتطبيق الشريعة.

2- لا يمكن تطبيق الشريعة إلا من قبل الحاكم.

3- الحاكم لن ينال القوة إلا من خلال الشعب.

4- الثروة (المال) ضرورية لمساندة الشعب.

5- الثروة لا تكتسب إلا من خلال (العمارة) أي التنمية.

6- العمران يتطلب العدل ولن يتحقق دون توفر العدل.

7- العدل هو الميزان الذي يقوِّم به الله البشر.

8- إن مسؤولية تحقيق العدل تقع على عاتق الحاكم.. أهـ

يرى ابن خلدون أن هذه القواعد يدعم بعضها بعضاً، وترتبط ببعضها بشكل دائري وبدائرة مغلقة، وقد جعل لها رموزاً، فالسلطة (س) والشريعة (ش) والشعب (ن) والثروة (م) والعدل (ل) ثم حاول شرح نوع الارتباط بينها.

- الخصوصية التاريخية:

في العالم خصوصيات: تاريخية، ثقافية.. إلخ، فلكلٍ خصوصيته (هنري لوفيفر) له كتاب جيد عنوانه (نهاية التاريخ) قامت د. فاطمة الجيوشي بترجمته للعربية ونشر عام

---

(1) الأمة وأزمة الثقافة، 393/1.

2002م، وأشم من المؤلف رائحة يسارية وهو يتحدث عن إدراك المؤرخ لخصوصية التاريخ؛ وهذه الخصوصيات لها قيمة إيجابية، ينظر إليها عادة باستحسان، بل يبحث عنها ويعرضها، ويعمل أحياناً على شرحها، ويعتقد أنها تاريخية بماهيتها وبوصفها موضوعات لمعرفته، وعلى العكس يدرك الاقتصادي، والمخطط والناظر للمستقبل، وكذلك صاحب الاستراتيجية، هؤلاء يرون في الخصوصيات سلبية.. [1] أهـ

الناس يختلفون ويتمايزون، وليسوا صورة (طبق الأصل) وكذلك الشعوب والأمم، هكذا خلقهم الله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (هود:118-119).. هناك من يعترف بالخصوصية في بلده، لكنه ينكرها ويتجاهلها عندما تكون له مصلحة في ذلك، ففي الولايات المتحدة الأمريكية كل شعب يحتفظ بثقافته (وكنيسته أو كنيسه) مع (لوبيه) الخاص به، وفي بلادنا العربية والإسلامية مطلوب إنكار وتجاهل أية خصوصية، والوكلاء يريدون أن نكون (نسخة طبق الأصل) للثقافة الأمريكية والقيم الأمريكية، بل مطلوب للعالم على سعته أن يكون (سوبر ماركت أمريكي) ومن يشاكس أو يعاكس أو يتذمر فهو معاد للتقدم وظلامي وعدواني ولا يستحق الحياة.

تاريخياً، لكل فترة خصوصيتها، وكل مرحلة من تطور شعب أو أمة له خصوصيته.. هل سيطبق هذا (التطبيع القسري) على إسرائيل مثلاً؟ وهي الدولة التي تعلن يومياً كونها (يهودية)؟ إن إنكار الخصوصية الثقافية يلزم منه عدم وجود اختلاف بين البشر ثقافياً أو اجتماعياً أو تاريخياً، فإذا كان الأمر كذلك فيمكن عندئذٍ سوق الكل (بالعصا) مع رفع شعار: (العصى لمن شاكس وعصى).

- الحداثة والتاريخ والأزهار المسمومة:

(1) نهاية التاريخ، ص 171.

التاريخ، كما أتصوره، هو نهر الحياة المتدفق، يكون يوماً عذباً رقراقاً، ومرة خليطاً بالطين والطمي، وما يحمله الماء من الغثاء.

أما الحداثة فبدلة عرس، تلبس مرة ثم تطوى، أما التاريخ فأعظم من ذلك وأكبر.. (هنري لوفيفر) يدرس علاقة الحداثة بالتاريخ ولكن بأسلوب (أدبي متأنق)، فالحداثة عنده من البلاغة، وهي باقة من (الأيديولوجيات) وأزهار سامة ذابلة وهمية، لكنها معطرة بشكل صناعي، ويزيد (هنري): لن تزعم الحداثة تصفية التاريخ، فهذا زعم متطرف مزيف، بقدر زيف إرجاع المعرفة للمعلومات، الحداثة تتلألأ على الركود، تقنع الشيء ذاته، الذي لم يتغير تحت مظاهر (فظة) أحياناً، وبارعة أحياناً، تقنع بالجدة، وضد التحليل النقدي.. فالحداثة والحياة اليومية ... متواطئتان تعملان معاً، تغشان معاً، تخدعان معاً، وتعيدان الخداع، ولكن رابطتهما لا تلغي التاريخية، بل تشير إلى انهيارها، وربما لتوقفها[1].

تعبير متأنق، ولغة أدبية، هل هي من (هنري) أم ممن تَرْجَم؟ لا أدري! الحداثة بلاغة، أي كلام عذب، لكن أشبه بورد صناعي، أو أزهار سامة ذابلة، فاقدة للحياة، وهمية غير حقيقية، لكنها معطرة.

الحداثيون في الغرب أنجزوا أموراً، أما عندنا فماذا أنجزوا؟ يكتب أحدهم مقالة أو يترجم مقالة، يلقي محاضرة أو يتحدث أمام مؤتمر في واشنطن أو لندن، ثم يحسب أنه جاء (بالأسد يجره من ذيله)، إنهم كمن ينكّت في مأتم، أو يبكي في عرس، أجسامهم معنا وقلوبهم وعقولهم في أماكن بعيدة، شاخوا وأفلسوا، لذا كانت صناديق الاقتراع الحكم الفصل، ففشلوا في كل مكان.

- النقل الحضاري قد يقود إلى الفشل والتمرد:

أسارع إلى القول: إن المستشرق الفرنسي المعروف (جاك بيرك) يتساءل: هل النموذج

(1) نهاية التاريخ، ص 1176.

الغربي (حتمي) وضروري لكافة الشعوب؟ ويرد: ليس بضروري ولا حتمي، بل قد يؤدي، في أحيان كثيرة، إلى أنواع من الفشل والقلق والتمرد.. [1] أهـ

ما رأي الوكلاء فيما يقوله (جاك بيرك)؟

- استهلاك منتجات الحضارة:

العالم اليوم وبفضل المواصلات، أمكن نقل المنتجات من أقصى الأرض حتى أقصاها؛ ولأن الغرب ينتج ما يحتاج وما لا يحتاج، لذا صار من المعتاد وصول هذه المنتجات لكل أقطار الأرض، لكن استهلاك ما تنتجه حضارة الغرب لا يعني (التحضر)، فالزبون الذي يستعمل الكثير من هذه المنتجات قد لا يعرف أهلها وصانعها.

مالك بن نبي، يرحمه الله، يقول في هذا الصدد: لكل حضارة منتجاتها المتولدة عنها، لكن لا يمكن صنع (حضارة) بمجرد تبني منتجاتها، فشراء ما تنتجه حضارة الغرب، ومن قبل كافة دول العالم، لم يجعلها تكسب حضارة أو قيماً حضارية، فالحضارة ليس تكديس منتجات، بل هي فكر ومُثل وقيم، لا بد من كسبها أو إنتاجها.. [2] أهـ

- ما كسبناه من الغرب:

د. رشدي فكار، المفكر العربي المعروف، والمرشح لجائزة (نوبل) والذي عاش في الغرب ودرّس وحاضر، يقول: لقد غصَّت ساحتنا المعاصرة ببقايا موائد الغرب بشقيه، الليبرالي والماركسي، لإنقاذنا بالفتات وافتعال الإشكالات، مع ترك جوهر ما حققه الغرب من تقدم علمي مكثف، استأنسه تطبيقاً في تقنية التصنيع والعمران، ومنهجاً في تنوع المعرفة وتخصصها، لقد (افتتنا) بهذا الفتات، لنضيف إلى همومنا المزمنة هموماً دخيلة ثم هموم حلول ما افتعلناه، فأصبح لدينا إشكاليات أساسية نابعة من واقعنا، بفقره وجهله ومرضه، وإشكاليات مفتعلة دخيلة نتلهى بها.. تعلقنا بالهوامش والفروع، وتركنا الجذور

(1) نحن والصديق اللدود، للكاتب، الطبعة الأولى، ص 98.

(2) شروط النهضة، ص 42.

والأصول، حتى غرقنا في مشاكل (حلول المشاكل) لتتعدد لدينا الحلول، وليصبح (الحل هو غيبة الحل)، وتوالت الهزائم على الإنسان العربي، من داخل ذاته، قبل أن تتسع وتتشعب وتتداخل مع هزائم الآخرين له ولأمته، وهكذا دخلنا (عصر العتمة).. [1] أهـ

فمتى يأذن الله لنا بالخروج؟

د. خلدون النقيب، شخصية عالمية أكاديمية حداثية ليبرالية علمانية، لذا فإن شهادته يصعب الطعن بها، فهو يقول: لقد أعطتنا الرأسمالية الغربية، إضافة للعلم والتكنولوجيا، أعطتنا العنف المسلح الشمولي والاستبداد البيروقراطي، للدولة الحديثة، والعنصرية السوفياتية (المؤدجلة)، أي التعصب القومي، هذه كلها ابتكارات ندين بها لحضارة الغرب الرأسمالي، كما تبلورت خلال ثلاثين سنة، من حرب ساخنة (1914-1945م) وحوالي (45) سنة من حرب باردة (1945-1990م)، وكان لا بد أن تترك هذه الابتكارات آثاراً تراكمية في الوعي الجمعي، في البيئة العربية المتخلفة، وفي عدم انتظام المجال النفسي للسكان، وبخاصة في انحسار العقلانية في التفكير، والغرق في مستنقع التسلط والإرهاب المنظم.. [2] أهـ

إنها مكاسب عظيمة مثل مكاسب تجار الأسهم اليوم!

- مكاسب جديدة أيضاً:

د. برهان غليون يتحدث عن المكاسب، فيرى أن العقلانية العربية ابتدأت مسيرتها كحليف لجهتين: الطبقة العليا والغرب المستعمر، وهي تريد أن تقلد الغرب في نمط حياته، ولتزيد من معدل الاستغلال لصالحها، متحالفة مع (السيد المستعمر) بينما انكفأت الأغلبية الشعبية نحو قيمها التقليدية، ولتزيد من تلاحمها وتضامنها، والتمسك بقيمها، ولتقف ضد التفكيك لوحدتها الوطنية والشعبية.

وهكذا تحولت العقلانية العربية إلى (خواجا) وسمسار للغرب وقيمه وأخلاقياته، والتي

(1) نظرات إسلامية للإنسان والمجتمع، ط1، ص25.

(2) في البدء كان الصراع، ط1، 1997م، ص 393.

يقوم أساسها على (كسر المحرمات) كافة، والاستخفاف بها كلها.. [1] أهـ

تهم كبيرة يسجلها شخصيتان أكاديميتان يصعب الطعن بشهادتهما.

- واقعنا المر:

واقعنا مر مرارة الحنظل، فشل يتبعه فشل، وهزيمة تعقبها هزيمة، حتى شبعنا هزائم، ووسائل إعلامنا تتحدث عن انتصارات، وإنجازات عظيمة، كل مجنون (عظمة) صار يلقب بالزعيم الأوحد والزعيم الملهم، والرجل الرجل، ورحنا نتلاعب بالمصطلحات فنسمي أكبر هزيمة بـ(النكسة).

إن الكثير من بلادنا (مخترقة) وكما يقول د. خلدون النقيب: لقد أسلمنا قيادة عالمنا العربي للغرب، فعلاقة عالمنا بالغرب ليست بريئة، إذ للغرب مصالح في عالمنا أبعد من حاجته للنفط، تتصل بعلاقات التخلف والتبعية والتنافس الحضاري التاريخي، وخاصة التخوف من القدرة الكامنة للعرب على التحول إلى قوة إقليمية تخل بميزان القوى في الحيز (الجيوسياسي) للعالم الإسلامي في آسيا وأفريقيا، وذلك على المدى البعيد.. [2] أهـ

وأسارع إلى القول: هذا ليس رفعاً للرايات السود أو البيض، وأزيد: إنه واقع بعضه من صنعنا، وجلّه مفروض علينا من (المعلم الغربي)، فنحن ومنذ قرابة قرنين (نجري) حتى حفيت منا الأقدام، لكنا كما يبدو نركض خلف سراب.

إن هذا الحديث سيزعج الوكلاء، وأود أن أهمس بمثلٍ باكستاني يقول: المرأة حين يموت زوجها تريد أن تعيش بشرف، لكن جيرانها لا يسمحون لها بذلك، ومن لا يصدق هذا فلينظر ماذا جرى ويجري لأهلنا في العراق وفلسطين والصومال؟

وأتمنى أن أطلع على إجابة وافية شافية: ماذا استفدنا من الغرب وماذا يمكن أن نستفيد؟

---

(1) اغتيال العقل، ص 254.

(2) في البدء كان الصراع، ص 393 .